جـــــآدور

الطبعة الثانية

1439 هـ

2018 م

اسم الكتاب:	جـــآدور
التأليف:	شذى غضيّة
موضوع الكتاب:	رواية
عدد الصفحات:	156 صفحة
عدد الملازم:	10 ملازم
مقاس الكتاب:	14 × 20
عدد الطبعات:	الطبعة الثانية
رقم الإيداع:	2017 / 27929
الترقيم الدولى:	ISBN: 978 - 977 - 278 - 662 - 6

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

01012355714 - 01152806533

جـــــادور

شذى غضيّة

دار البشير
للثقافة والعلوم

إهداء..

إلى أبطال رواياتي الحقيقيين.. بتفاصيلهم الحيّة والميّتة..

إلى شق البرتقالة الثاني.. إلى مدينة الجسور التي لم أَزُرْها يومًا..

إلى كل «أنثى»..

مع حفظ الألقاب والمُسميات.. بقلبها الملائكي وعقلها الآينشتايني وأفكارها الشيطانية...!

إلى كل «رجل».. يخون بضمير.. ويكذب بحبٍ.. ويسرق بأمانة..

شذى غضية

المقدمة

خمس بتلات من الياسمين تقطفها تلك الجميلة في محطات متقطعة من حياتها، كطائر العنقاء تُحرق وتخرج مجددًا من تحت هذا الرماد بروحٍ جديدة، ترنّحت بين طيات البؤس كثيرًا، واستخرجت من حجرات قلبها أنقى ما فيه، كان لآدم نصيب ميّتٌ في سنواتها الأخيرة، وتأكدت خلال رحلتها أن الرجال ليسوا واحدًا، قسمت قلبها إلى أربع حجرات بين الحب والوطن والأمل والتعاسة، وفي كل مرّة تقنع روحها بأن الحرية هي من تصنعها، لم تطلبها يومًا، بل خلقتها، حتى رمت بآخر حجرة من التعاسة وضمّتها مع حجرة الوطن، لتكون فتاةً بنصف وطنٍ، وأجزاء سعادة، وأرباع حياة.

هذه الإنسانة تشبهكِ يا عزيزتي، ابحثي عن نفسكِ بها، واقرأي السطور القادمة بفرح، تستحقين أن تكوني سعيدة.

البتلة الأولى

كالسراب المتلاشي تُشعِر من حولها بوجودها وهي تائهة بعيدة.

نسيمها يخترق جسدي ليشتعلَ بنار غيرةٍ تفضحني، هي كانت ذكرى عابرة السبيل في جمجمته، وأشباه تفاصيل غير واضحة، لها بداية وليس لها نهاية.

زهرتي المرغوبة باسمها، عقاب ربانيّ وقع عليّ حين أدخل الله عشق الطيبِ إلى قلبي، أسأل نفسي دائمًا لماذا ليست زهرة بوفارديا، ولا الأقحوان، ولا الفلامنجو ولا النرجس؟! لماذا هي؟

فنجان البنِّ لا يحلو إلا بها، وريقات بيضاء حوله وعرق أخضرُ نديٌّ ورحيقها معسول، ياسمينة أهداني إياها جهلت سببها والآن اتضحت الصورة.

شددت عليها في قبضتي حتى تمزقت وريقاتها، وارتشفت من فنجان القهوة.

فتح باب الحديقة، بحيويته المعتادة، أحضر كرسيّه، وألصقه بجانبي وتساءل مازحًا:

- أين فنجاني؟

- إنه هناك يا عزيزي، اذهب وأحضره.

فنجانه الأبيض هدية قديمة غالية على قلبه من صديق قديم من أيام الثانوية، نحتت عليه عبارة محمود درويش الشهيرة «على هذه الأرض ما يستحق الحياة» يرى في فنجانه الحياة والتفاؤل والأمل.

من هنا بدأت الحكاية..

هو ليس وسيمًا، قبل ثمانية سنوات كان كالغصن الذابل المتساقط الأوراق، شاحبَ الوجهِ فاقدًا للأمل، يحلم بقارب نجاة ليُقلّه إلى الضفة الأخرى من الحياة، يبحث عن بصيص الأمل الذي كان يقرأ عنه في أساطير القدماء.

مغامرة غريبة أخذتني من عالم إلى آخر، كنت طفلة والدَيّ المدللة، وشاء القدر أن أقع في حبه، حتى ألبسني الخاتم في الثلاثين من مايو.

كان وكأنه عيدي الثالث، رأيت فيه ذلك الشخص الأسطوري الذي تطمح إليه أية فتاة، وسيم كاسمه، ونقاء قلبه أسر شيئًا كبيرًا في داخلي، أشعرني بالدفء والحب والطمأنينة والاحتواء، روحه الجميلة، وأفكاره المزخرفة، إلا أنني كنت أرى في عينيه شيئًا من الضياع، يفكر كثيرًا، لا ينام جيدًا، الهالات السوداء تحت عينيه أرهقت عقلي.

حتى جاء ذلك اليوم..

- لجين، هل لنا بتناول وجبة عشاء معًا هذا المساء في مطعم مانشستر؟

- لا مانع بذلك يا وسيم، سأكون جاهزة في تمام الساعة الـثامنة.

- حسنا، إلى اللقاء.

الساعة الآن الثامنة إلا ربعًا، لم يتبقَ إلا أن أضع أحمر الشفاه وعطره المفضل، «جادور» - وهو مزيج من عبق الورد الأبيض والياسمين والأوركيديا - الذي يحبه.

دقيق هو في مواعيده، الساعة الآن الثامنة تمامًا، والسيارة في الشارع المحاذي للمبنى.

- جميلة أنتِ جدًا، ورائحة عطرك تحرك مشاعري.

- قرأت في مذكراتك أنك تعشق هذه الرائحة.

نظر بتوتر..

- هيا عزيزتي، فلنذهب.

سرعة السيارة فاقت الحد المسموح بِهِ، لم أعلم سر هذا الانفعال الذي غزا وسيمًا فجأة؛ ليجعله غير مسيطرٍ على أعصابه.

أجواء المطعم جميلة جدًا، موسيقى بيتهوفن الهادئة، وأضواء خافتة، نسائم الهواء تدخل من النافذة وتصطدم بالستائر لتداعب شعري بخفّة، التفتُّ يمينًا ويسارًا حتى وجدت مقعدين يطلان على الطبيعة، أمسكت بيد وسيم، لنجلس هناك.

جاء الجارسون ليأخذ الطلبات..

- تفضل سيدي، ماذا تريد؟

- لجين، ماذا تريدين؟

- أريد ستيك دجاج مع عصير برتقال.

- إذًا فلتحضر لها ذلك، ولي بالمثل.

بابتسامة هادئة..

- لكنّي قرأت في مذكراتك أنك لا تحب الدجاج.

- أحببته لأجلك عزيزتي، وماذا قرأتِ أيضا؟

- قرأتُ أنك كنت تعيش داخل زنزانة مغلقةٍ، كنت فيها السجن والسجّان والقاضي، لم أفهمك، ماذا قصدت بها؟

ينظر خارجًا من النافذة، ويتبعثر في تفكيره كثيرًا، حتى استيقظ من غيبوبة الشرود على صوت الجرسون..

- تفضل سيدي، سيدي...؟

- أوه، نعم، شكرًا لك.

عمّ الهدوء أرجاء المكان، وظهر صوت معزوفة بيتهوفن الشهيرة «ضوء القمر».

بصوت مختنق:

- هل تؤمنين بالحب؟

- لم أكن أؤمن به، كنت أظن أن الرجال كالمرآة المكسورة، تنظر إليها من بعيد بدون وضوح وفي غباش، وكلّما اقتربتَ منها زاد الخطر أن تجرحك...!

- حسنًا، لماذا أنا؟

- ربما لأنك أحببتني بصدق، وليس لك ماضٍ مثلهم.

يبتسم:

- نعم، نعم، أحبك.

- وليس لك ماضٍ مع غيري، صحيح؟

أسكتني وأهداني طوق ياسمين، همس في أذني، «لجين، شذاها يبعث السكينة «!

قاطعته بلهفة:

- وسيم، من تكون...!

بتردد وهدوء:

– عزيزتي، هذا يومنا، دعي أفكارك بعيدًا، أتريدين بعض العصير؟

دامعة العينين..

– إذًا هنالك من تتربعُ في خافقك؟

شابكًا يداه:

– لجين، أنتِ فقط من يستوطن قلبي الآن.

– وقبل الآن؟

– ياسميـ...، لجين! أغلقي الحديث.

– اسمها ياسمين؟

تاهت أفكاري، وكيف يمكن أن يُقبِل على الزواج وروحه مع غيري، من تكون؟ لربما أكون دواء النسيان، أو البساط السحري لرغباته، لربما يكون فعلا تركها، أو رآها غير مناسبة له، أيمكن أن تكون هي من تركته؟، أو خانته؟ هل يحبني فعلًا؟ تمازجات مبعثرة تأكل رأسي.

لجين، أقسم أنها الماضي وأنتِ الحاضر، هي ورقة سافرت في مهب الريح منذ عشرة أشهر إلى دبي، لا يوجد علاقة بيننا، صدقيني!

- وسيم، تأخرنا، أريد أن أعود إلى المنزل.

- ما كان عليّ حينها إلا أن أغادر ذلك المكان الموبوء والذي أصبح يعتبر بالنسبة إليَّ ذكرى سيئة، لم أعد أصدقُ عينيه، الشرود والضياع والتفكير المستمر ليس سوى دليلٍ على مراوغته.

أنا الآن في منزلي، والخيبة تأكل من يسار جسدي، تفقدت هاتفي، لا يوجد أي مكالمات فائتة، لا أريد محادثته على أيَّةِ حال، كبريائي مرضٌ يسيطر عليَّ منذ صغري، وعصبيتي داء لا دواء لها.

بجانب سريري، هذا الإطار المذهّب يخفي خلفه صورة قديمة لوطني الذي خرجت منه، فلسطين، هنا مدينتي نابلس، وهذا العم أبو أحمد كان يذكّرني بحلوى العيد، كلّما نظرت إلى هذه الصورة يحدث تفريغ لجميع الطاقات السلبية الكامنة لديّ، أشعر دائما بالغربة، رغم أنّي بين أحضان عائلتي، غربة للتراب والهواء والطعام في بلادي، وكم هو عصيّ عليك الدمع أن تكون غريبًا رغم كل ما تملك.

وهذه كنزة الصوف الوردية، هدية صديقتي المقرّبة، أذكرها حين كانت رفيقة دربي في كل شيء، رفيقة المغامرات والأزمات، وبئر أسراري العميق، تذكرنا كل الأزقة في نابلس، البلدة القديمة، والمنتزه، والجامعة، وكل شيء فيها، بصمتنا غارقة في ترابها، بسمتي تنطلق من ثغري رغمًا عني حين أذكر اسمها، للشتاء فيها ذكريات قاسية، يتخللها الحنين والاشتياق، لربما هو الاشتياق

لذاتنا الموغلةِ في القدم، نبكي على أيام طفولتنا ونعلم جيدًا أنها لن تعود، صديقة الحزن والفرح والتخطيط الاستراتيجي للمصائب الطفولية الجميلة، أحمد الله أنها ليست هنا، وسيم يغار حتى من طيفها وعند ذكر اسمها، فهي الأقرب إليّ من بين كل الأشخاص.

تحديات تخترق ريختر القدرة لديّ، وكلّما أحسست بالغربة عانقت هواء وطني بالتذكر والاسترجاع.

فترة قصيرة ستمضي كالبرق، سينهي أبي مشروعه الجغرافي في بريطانيا، ووسيم سيعود معه شهادة الدكتوراه.

هاتفي يرن، إنه وسيم، أنا غير مهيأة لاستقبال مكالماته، صوتي المختنق، واشتياقي للماضي، وخيبتي، جميعها تقتل الرغبة بإخراج الحروف.

سأذهب لأستحم، وأغسل قلبي من هذا الضيق، حتى صوت المياه يكون مزعجًا حين تتخابط الأفكار.

هذا صوت أمي من غرفتي:

- لجين، لجين! أين أنتِ؟ لماذا لا تجيبين على هاتفك؟
- أمي، كنت أستحم.
- هذه المكالمة التاسعة لوسيم، أعيدي الاتصال به.
- لن أحادثه يا أمي، أريد البقاء وحدي، كان يومًا متعبًا، سأنام.

- أحدث خلاف بينكم؟

- لا، أريد فقط النوم، تصبحين على خير.

الصمت هو وسيلتي الوحيدة للهروب دائمًا من الجدال، أغلق هاتفي وأضع رأسي على وسادتي، لا أنام أنا ولا هو ينام، نبقى معلقيّن حتى يتنازل أحدنا للآخر، لكن هذه المرة لن أغلق هاتفي، سأنتظر حتى يهدأ قلبي وأجيب.

ها هو يرن ثانيةً كما توقعت:

- لجين! لماذا لا تجيبين على مكالماتي؟

- اختناق

- من ماذا؟! أنتِ هكذا دائما، لا تستمعين لأي تبرير من تبريراتي، تجعلينني أقف عاجزًا عن فعل أي شيء، حتى للوصول إليكِ!، لا تُحلُّ الخلافات هكذا، يجب أن تتخلصي من تمردك هذا وعصبيتك المفرطة...!

بتوتر:

- ماذا تريد أن تبرر؟، أيوجد تبرير؟

- ياسمين حكاية فتاة جمعتني بها حروف لوحة المفاتيح الخائنة، حين كان يحاوطني فراغٌ عاطفي قاتل، وأخذنا الحديث طويلا، حتى شعرت أن أرواحنا تلاقت، تقرَّبت إليها أكثر، وعلمت

ما تخفيه من تيه، شعرت بقربها، تبادلنا الحديث حتى أصبحت قريبة بعيدة كما الحلم...!

وهي الآن متزوجة، ولا يحقُّ لي حتى التفكير بها، هي وهمٌ يا لجين، وأنت الحقيقة، وأُشهِد الله أني أحبك، فلا تجعلي هذه الهواجس تهدم جسور الثقة بيننا.

- أين هي الآن؟

- سافرتْ إلى دبي، لتكمل تعليمها، وتحصل على شهادة الماجستير.

- هل ستعود بعد ذلك؟

- نعم، ستعود، لكني لا أريد أن أعلم متى، فما عادت تهمني أبدًا بوجودك. أحبك.

كان وسيم قادرًا حينها أن يطفئ نيران الشكوك في قلبي، وتأكدت لديّ فكرة واحدة، أنها وهمية، ولن يلتقي بها يومًا.

مذكراته! نسيت مذكراته، الدليل السياحي لقلبي، ومرجعي الوحيد لجميع أفكاري، رغم أنّني قرأتها، إلا أنّني أحتاجها كل فترة لأفهمه أكثر، سأفتحها وأقرأ أعماقها، لتتضح الصورة:

في الخامس عشر من مايو..

"ما الحبّ إلا للحبيب الأولِ، خرافة سخيفةٌ لا أؤمن بها، سأقبل سأقدم اليوم على الارتباط بفتاةٍ لبقيةِ العمر وأمنحها خاتم الزواج، خطوة صعبة وجريئة، في ظل وجود فتاة أولى وحب أول ومستقبل أول، لكنّني رأيت فيها ما أحلم به وأكثر، إلى متى سيظل قلبي معلقًا بأخرى لن تنفعني، ولن تكون لي يومًا، سأفتح صفحة جديدة في دفتر مذكراتي هذا، وأبدأ من أول الصفحة، لجين، أحبكِ أنتِ"

وسيم كان يحلم بأن يدرس الإنجليزية، ليصبح مُترجما في دول الغرب، كانت دراسة الدكتوراه في الاقتصاد ليست إلا قناة قصيرة للوصول إلى الحلم الأبعد، وتحسين وضعه الاقتصادي لنبني بيت الاستقرار بأسرع وقت.

عصاميٌّ بطبعه، متزن، عذب الصوت، ورقيق المشاعر، صفاته كافية كي تجعلني أغوص في داخله، ومعرفة تفاصيله الغامضة حتى الآن.

الساعة الآن السادسة مساءً، ولم يتصل بي حتى هذه اللحظة، أين هو؟

- وسيم؟ كيف أنت؟ افتقدتك اليوم.

- أنا بخير، كنت سأتصل بكِ الآن، أدرس عزيزتي، وقد داهمني الوقت، أعتذر منكِ.

- ألا تملَّ الدراسة؟ دعنا نذهب إلى مكان لتأخذ قسطاَ من الراحة، اممم.. كضفة النهر مثلا!

- فكرة رائعة، استعدي، سآتي لآخذكِ بعد نصف ساعة.

هو يحب اللون الأحمر القانيّ والأسود، سأختار هذه الملابس، وهذا الروج أيضا، أما عن رائحة العطر، فلن أكون غبية وأضع من نفس الرائحة التي يحبها، تلك الممزوجة بالياسمين.

ها قد انتهيت من لمساتي الأخيرة مع رنة هاتفه..

- أنا أسفل المبنى، أنتظركِ.

- سأنزل حالًا.

نظراته مختلفة هذه المرة، ليس فرحًا برؤيتي كعادته..

- لجين، جميلة أنتِ جدًا، لكن قميصك قصير قليلًا.

- لم تقل لي يومًا شيئًا عن ملابسي، لماذا الآن؟

- أغار عليكِ.

- سأبدله، لن أتأخر، انتظرني.

هذه المرة الأولى التي ينتقد فيها وسيم ملابسي، رغم أنه ليس قصيرًا جدًا، لربما هي غيرته الشرقية، سأبدله لأجله، فلا أريد أن أجادله وأعكر المزاج الجميل الذي يعتريني.

- الآن أفضل؟

- نعم، أفضل بكثير.

- أفهم منك أن سببًا دينيًا جعلك ترى ملابسي غير محتشمة؟

- بالتأكيد، الدين في السياق الأول، والحب والغيرة، مجتمعة هذه الأسباب جميعها.

- أحترم فيك ذلك.

فرحةٌ جدًا من أعماقي، وهل هنالك أجمل من أن يكون الرجل يخاف الله في كل شيء، حتى في بلاد غير مسلمة، سعادة وطمأنينة اجتاحت جسدي، أجهل سببها.

نحن الآن على ضفة نهر التايمز، لوحة ربانية مرسومة بدقة وإتقان، صمت وهدوء، وتأمل بديع صنع الله في صفحات الكون الممتدة أمام ناظرينا، بساط مائي طويل منسوج بخيوط القمر الفضية المعكوسة عليه، مياهه عذبة هادئة، مشهد يبعث السكينة لروحي التائهة، شعور لم أعهده قطّ، وكأنني جئت كي أرمي بهموم البر إلى النهر، فراغ ومجال واسع، مما أعطى فسحة للخيال أن ينطلق، وللعقل أن يتسع، اتساع الفراغ والمجال.

سبحت بأفكاري في مياه النهر..

- وسيم؟ ماذا حدث لو كنا نستنشق نسيم بحر فلسطين الآن؟!

- أتقارنين بريطانيا بفلسطين؟ جميلة هي الحياة هنا.

- لا! الغربة قتلت في داخلي أشياءَ كثيرة، قتلت لديَّ الرغبة بالاستمتاع بأي شيء بعيدًا عن بلدي، أشعر أني ضيفة هنا، أنتظر اليوم الذي أحمل فيه حقائبي وأخرج من رحم هذه المعاناة، أريد أن أتنفس، أشتاق لكل شيء في وطني، حتى صغائر الأشياء كخبز الطابون والزعتر...!

ينظر إليَّ وسيم بعمق..

- ألهذا الحد تحبينها؟

- بل أعشق ترابها.

- فقط لأجل الطابون والزعتر؟ ألا يوجد شيء آخر تحبين فلسطين لأجله؟

بخجل:

- بلى، يوجد.

- ما هو؟

- لقائي بك كان على أرض الوطن، ومحاربتنا لأن نكون لبعضنا، رغم رفض والديّ الخِطبة الطويلة التي ستستمر ثلاث سنوات، أتذكر لقاءنا الأول؟

- بالطبع أذكر، كان في المكتبة، كنتِ تقرأين كتابًا لأحمد مطر.
- تمامًا، وأنت كنت تسأل عن كتاب، نسيت عن ماذا يتحدث.
- لن أخبرك عن مضمونه.
- لماذا؟
- لأني لا أريد أن أشعل غرور المرأة في داخلك.
- لا تخفْ، أنا لست مثلهن.
- كان يتحدث عن تعدد الزوجات.
- أتؤمن بتعدد الزوجات؟
- نعم أؤمن، لكن لا تهمني واحدة أخرى بوجودك.

كنت أقرأ دائمًا أن الرجال لا تكفيهم امرأة واحدة، بل يبحثون عن ثانية وثالثة ورابعة، لإشباع رغبة لديهم، ظننت أنَّ هذا تأليف روايات وكلام كتب، لطالما فكرت، لماذا يلجأ الرجل إلى الزواج من أخريات، أرى دائمًا في الرجل الظهر الساند للمرأة، لم أتخيل يوما أن تتكئ امرأتان على ظهر واحد، يكون هو وطنها وعالمها، تترك من احتضنها لأجله، هي أمانة من الله قبل والديها، كيف يمكن أن تشاركها به غيرها؟

أسئلة كثيرة أشعلها وسيم في مخيلتي، أويمكن أن تشاركني به إحداهن يومًا ما؟

- لجين، انظري إلى تلك السفينة، يا لروعتها...!

لجين!، أأنتِ معي؟

كنت في عالم آخر غير الذي هو بداخله:

- نعم.. نعم معك.

انتهت رحلة النهر التي جددت اشتياقي إلى فلسطين وأهلها، وانتزعت الملل الذي كان يستوطن في أحشائي، وصلت إلى منزلي، ووجدت عائلتي مجتمعة في غرفة الاستقبال، والفرحة تكاد تأكل ملامح وجوههم.

باستغراب ودهشة:

- ما سرّ كل هذا الفرح؟

أجابني والدي:

- سنعود إلى فلسطين، لقد أخبرني مدير المشروع أنني أنهيت الجانب الميداني من المشروع الجغرافي، وسأكمل العمل عن بعد، وسيلحق بنا وسيم بعد أربعة أشهر حتى ينتهي من مهمته.

مشاعري متقلبة الآن، مزيج من الفرح والارتباك، أخيرًا سوف أعانق هواء مدينتي، وأغفو على سريري بعد غياب استمر سنتين وثمانية أشهر، سأعود إلى صديقتي، سنعيد ذكرياتنا المدفونة منذ فترة طويلة، لكن، وسيم! كيف سيكون حاله ما بين الدراسة والاشتياق!

قررت حينها أن أخبره، أمسكت بالهاتف كثيرًا وأغلقته أكثر..

- وسيم، كيف أنت؟

- لجين، الآن كنا سويا اشتقتِ لي؟

بتردد:

- نعم، اشتقت إليك.

- ما بال صوتكِ؟ ماذا هناك؟ أستشعر الخوف والتردد فيه...!

- وسيم، سأعود وعائلتي إلى فلسطين صباح غد.

- غدًا...! لماذا؟ والمشروع الجغرافي؟

- أنهى والدي عمله الميداني، فترة طويلة هي الأربعة أشهر، لكنها ستمر بلمح البصر، صحيح؟

- أعدك أني سأعود، ونقيم فرحنا، لن أطيل الغياب، سأشتاق إليكِ.

- سأشتاق إليك أيضًا.

- حادثيني فور وصولك.

- حسنا، تصبح على خير.

ملأت حقيبتي بكل مقتنياتي، سآخذ من بريطانيا ذكرياتي مع طبيعتها الخلابة، وأشخاصها الرائعين، ستظل فترة حياتي في هذه

الدولة نقشًا من الماضي الجميل، وسأحدث به أطفالي مستقبلًا.

الساعة الآن الـرابعة فجرًا، أهلي بدأوا بارتشاف آخر لحظاتهم في هذا المكان، غرفتي وزاوية قراءتي، وحديقة منزلي، سيبقى لها في القلب أثرا.

أغلق والدي الباب، وسمعت صوت صداه لآخر مرة.

نحن الآن في مطار هيثرو، ننتظر موعد إقلاع الطائرة، شيء ما ينقصني، لم أودع وسيم، وعدني بأن يكون هنا قبل الموعد، يبدو أنه لم يستيقظ، سأشتاق إليه!

خمس دقائق وسننطلق، ولم يأتِ وسيم بعد، حسرة وخيبة تملأ أضلعي، كنت أتمنى أن أشاركه آخر لحظاتي هنا.

على مقعدي البني في قاعة الانتظار أرتشف كوب القهوة.

- هيا يا لجين، سننطلق.
- أمي! لم يأتِ وسيم حتى الآن.
- لا بأس يا ابنتي، ضعي له سبعين عذرًا.

شيء ما بداخلي يقول لي أن وسيم سيأتي، شعرت به في أرجاءٍ قريبة.

يلهث وسيم:

- خفت ألا أراكِ!، كوني بخير من أجلي، سأعود.

- أثق بك.

أعاد لي وسيم الشعور بالفرح والاطمئنان، ها أنا وعائلتي على مشارف أبواب الطائرة، صوت بعيد من مساعد الطيار يأمرنا بربط الأحزمة، ساعات قليلة تفصلنا عن الهبوط، بدأت الغيوم تظهر كالقطن المتكوم، مياه المحيط يتخلله من الأسفل، وخيوط من شعاع الشمس تضفي نوعا من البهجة والحبور، انغماس في التفكير، وانسلاخ عن الذات، وصراع بين الحاضر والمستقبل.

عيناي مزخرفتان بخيال ما تشاهدانه من وراء النوافذ، أظن أننا فوق ثرى قبرص، ساعتين ونصف وسنصل.

لم أنمْ الليلة الماضية، كنت أستذكر آخر لحظاتي في ذاك المنزل، زارني النعاس، جفوني ودّعت الفسيفساء والغيوم، وأغلقت.

استيقظت على صوت أمي:

- لجين! ما بكِ يا بنتي!

نظرت إليها بخوف ورعب ولم أتفوّه بحرف.

- جسدك يتصبب عرقًا!، أأنتِ بخير؟

- نعم يا أمي، بخير، بخير...!

كابوس مرعب أكل من مفاصل جسدي، يبدو أن ياسمين تحول اسمها من العطر إلى الغاز الخانق في قاموسي، رحيق الياسمين ما

زال يداعب تفاصيل حاضري، أحمد الله أن وجودها حلم.

ها هي الطائرة تحط في مطار الملكة علياء في عمان، شعور عبرت عنه بحروف الاشتياق، سنقيم هذه الليلة في الفندق، وننطلق فجرًا إلى أحضان مدينتنا.

سأحادث وسيم..

- وسيم! كيف حالك؟
- لجين!! كنت أنتظر اتصالك.
- أحمد الله، إننا وصلنا الآن.
- ستمر هذه الأيام بسرعة، لا تقلقي.
- أتمنى ذلك.

لم أتخيل يومًا أن أكون في عمان وأعود منها دون زيارة مكان له حيز كبير في قلبي.

- والدي، هل لنا بزيارة مخيم البقعة؟
- لماذا يا لجين؟
- هو أكبر تجمع للاجئين الفلسطينيين في الشتات، لطالما كانت الأردن شق التوأم لفلسطين، هناك أخوتنا، سنصل أرحامنا.

- سنذهب.. هيا.

على مشارف المخيم، القلب ينزف، والعين تدمع، والحال يحوطه السكون، عار وخزي وملامة، هذا ما أشعر به الآن، لو أنني أستطيع أن أحمل كل هؤلاء البشر على ظهري، لحملتهم وعدت بهم إلى أرض الوطن، كنت أحلم أن أدرس الصحافة والإعلام، لأجعل أصوات الناس تقتحم آذان من كانوا السبب في حالهم، أتمنى لو أن معي الكاميرا لأوثق ما تراه عيني من معاناة وحزن.

عدت إلى الفندق وقد ملأ الغيظ أعماقي، لا أريد عدلًا، أريد ظلمًا يتوزع بعدل، غصة تعتريني، وألم يتخلل فؤادي كلما رأيت عين طفل دامعة، أو وجه امرأة عبوس، أو يديّ رجل تشققت من التعب، كان الله في عونهم.

عجلات السيارة تتحرك متجهةً إلى نابلس، نحو أحلامي المتكومة على قائمة الانتظار، مشاريعي المعلقة، مرهونة بتراب مدينتي.

دراستي للقانون كانت حلم وهدف منذ صغري، حققته وحملت شهادة ورداء المحاماة على عاتقي، سأجعل منه قبضة لتدافع عن الخير وفضح الكذب والفساد والتزوير والظلم.

حال وصولي سأزور شخصًا تشتاق أضلعي لمعانقته، ستكون مفاجأة غير متوقعة.

الساعة الآن الثالثة عصرًا، وأمام باب منزلي، منتظرة من والدي

أن يدخل المفتاح، طال مكوثي واعتكفت، كل شيء في مكانه كما تركناه، حتى أن باب غرفتي مغلق، هذا سريري، وحتى دميتي وحيدة، تفاصيلٌ صغيرة، كبيرة في الوجدان.

لن أبدّل ملابسي، سأنزل إلى بيت صديقتي في الشارع المحاذي، لكنْ قبل ذلك، سأحضر لها شيئًا طفوليًا تحبه، أعيد من خلاله نبع الذكريات.

طرقت الباب بخفّة..

- من هناك؟

- جنى؟ افتحي الباب.

- لجين! الحمد لله على سلامتك!

- اشتقت إليك!

عمّ الهدوء في المكان، لم أرَ غير عينيها الخضراوين اللامعتين تنظران بعمق واندهاش، قاطعت هذا الصمت ومددت يدي وفيها بالون هيليوم، كان رمزا قديما وسرا لا يفهمه غيرنا.

اندفعت حينها بشدة وعانقتني، حتى فلت البالون من يدي وطار.

- لجين، ادخلي، ادخلي إلى المنزل.

- لا يا جنى لن أدخل، ارتدي ملابسك، سنزور أرجاء المدينة.

- حالًا، لن أتأخر.

وأخيرًا أستنشق هواء فلسطين، أشعر براحة كبيرة في نفسي.

- كيف كانت رحلتك يا لجين؟

- جميلة جدًا يا جنى.

- كنت أعد الدقائق والساعات والأيام لعودتك، لكنْ لماذا عدتِ قبل الموعد بشهور؟ هل حدث شيء؟

- أبادلكِ الشعور، لقد أنهى أبي ما ذهب لأجله، وبقي وسيم هناك ليكمل دراسته، سيعود قريبًا بإذن الله.

وأنتِ يا جنى، كيف كانت أيامك؟

- لقد أنهيت دراسة اللغة العربية في الجامعة، والآن أعمل معلمة في مدرسة.

إلى أين تريدين الذهاب؟

- إلى الجامعة، سألقي نظرة عليها.

وصلنا أسوار الجامعة، لكل زاوية فيها حكاية مع صديقاتي، هنا كنا ندرس، وهنا كنا نقرأ، هنا كنا نأكل ونضحك، وهنا أيضًا تبادلنا الأحزان والأسرار.

- لجين، انظري إلى هذا المقعد، أتذكرينه؟

- بالطبع أذكره! هنا كنا نخطط لمشاريعنا وأفكارنا الجنونية...!

هنالك شخص اعتدت على الذهاب إليه قبل عدة سنوات، في غربتي لم أنسها يوما، كانت تجول في خاطري دائمًا، أستشعر وجودها الذي لا يفارقني.

- جنى، تعالي معي.

عند باب ملجأ الأيتام، إنها هنا، صغيرتي المدللة، تعلقت روحي بها منذ أول مرة رأيتها بها، ووعدتها أنني سآتي لرؤيتها دائمًا.

- لجين، دعينا نخرج من هنا.

- لا يا جنى، أريد رؤية جراح.

- سنذهب في وقت آخر، أنا جائعة، لنذهب ونأكل.

- سنأكل لكن بعد أن أراها! اشتقت إليها.

بصوت متقطع:

- لا، لا، لمرة ثانية.

- ما بكِ يا جنى! أهناك ما تخفينه؟!

- لا.

- إذًا فلندخل لبضع دقائق.

كنت حينها أرى جنى تبطِئ في خطواتها، وتصرُّ عليّ كي نغادر

المكان، زرعت شيئًا من الشك في قلبي، لماذا هي خائفة! أيعقل أنها لا تحب زيارة هذا المكان، أيمكن أن إنسانيتها تغيرت، ماذا تخفي عني صديقتي..

أمام غرفة مديرة الملجأ:

- أسعد الله مساءك سيدة عبير.

- لجين! افتقدناكِ، أين أنتِ؟ أطلتِ الغياب.

- ظروف أشغلتني، والآن انتهت بحمد الله.

- اجلسن، سأحضر لكنّ القهوة.

- سيدة عبير، لا أريد أن أمكث طويلًا، أريد أن أرى جراح.

- جراح؟

- نعم، جراح، صغيرتي المقربة، أين هي؟

السيدة عبير وجنى تتبادلان النظرات بتوتر..

- لجين، لا أعلم ماذا أقول.. لكن..

عيناها ترتجفان كما لو أن هزة أرضية ضربت جسدها الساكن، هدوؤها المريب ولعثمتها كطفلة صغيرة في أول أيامها مع الحروف، أشعرتني بأن كل الأشياء تميل إلى الانحدار وترغمني على الخوف.

- جراح فارقت الحياة.

ألا ليت حروفها بقيت تائهة بين شفتيها، أو أن صممًا أصاب أذنيّ التعيستين دون صوتها قبل أن تنطق بشيء، اختناق، تعبّقت شراييني بالذهول والانغماس في الحدث مع عدم معرفتي للتفاصيل، لم أشعر بمرّ الفقدان وعلقمه يومًا، كنت أشاهده عن بعد، وظننت أن اقترابه مني محظور، أشعر دومًا أن الموت سيسرق كل الأطياف عدا أحبتي.

- اجلسي، سأخبرك.

- كانت جراح مريضة بسرطان الدماغ، ولم نعلم به إلا بعد تفشيه في كل جزء من جسدها، حاولنا علاجها لكنَّ التكاليف أرهقتنا، بحثنا عن أيادٍ بيضاء لإنقاذها، لكنَّ الوقت كان قد فات!! ماتت تاركة مكانها ضحكة صادقة تهز أرجاء الملجأ.

توجهت إلى غرفتها، إنها دميتها المفضلة، تنتظر رفيقتها في الزاوية، هذه هدية والديها قبل الرحيل، وهنا سريرها، كنا نتبادل الأسرار الطفولية الساذجة، كانت تسرد أحلامها المستحيلة، اسمها له نصيب منها، جراح الطفولة والحاضر وموت المستقبل، قدماي لا تقويانِ على حملي، إنه العجز عن التعبير، وانعدام القدرة على التفكير.

جنى تمسك عجزي بيدها وتسندني..

- لجين، اهدأي يا عزيزتي، دعينا نخرج من هنا.

- جنى، سنذهب إلى قبرها، يكفي أن أملأ قلبي بوجودها المزيّف.

ألواح بيضاء تقبع تحتها تلك الأميرة النائمة، وأخيرا ستلتقي بوالديها بعد طول فراق، لربما الآن هي الأسعد بين أطفال الكون، فالحياة لا تليق بالملائكة الصغار، هي أنقى من أن تتلوث بنجاسة الأشرار.

تدور بعض اللحظات في مخيلتي تحمل معها ابتسامة شقية مبللة بالأحزان التي تأبى الانصياع لمطالب القدر المرسوم منذ أن وضعت شهيقي الأول في خط الحياة المجهول، أنا أحبها، وكانت تعلم تلك السمراء، ناعمة الشعر، متوهجة العينين، شرقية الجنون والسعادة أنني كنت أحبها، أحضرت لها كتابًا من بريطانيا يحكى قصة العدل بين أسود وأبيض لتكون نهايته لون رمادي يجمع بين الاثنين تحت سقف السلام، ولكنها غادرت قبل أن تذوقه، أو أن ترتشف قليلًا من السلام المكتوب في الروايات دون الحياة.

- جنى، فلنعد إلى المنزل، لقد تعبتِ اليوم كثيرًا.

لم أكن أعتقد بأن يومي الأول في فلسطين سيكون كغيمة سوداء تخيّم على نهاري، حين وصلت منزلي كنت أشبه بكتلة من الخذلان، مررت من باب منزلي إلى غرفتي فورا، دون الالتفات إلى أحد من

عائلتي، أصواتهم تخترق أذناي بتشتت وانهزام، ألقي السلام يا لجين، ما بكِ يا لجين، اجلسي معنا يا لجين، حالة من الانسلاخ عن التفكير للحظة، هذا كل ما أحتاجه الآن، هاتفي مقفل كما عيناي ورأسي، سأخلد في سبات عميق، كم أتمنى أن أخرج عن التغطية لأيام، الساعة الآن الثانية عشر بعد منتصف الليل، وسادتي لم تجف من بكائي طوال هذا الوقت، ابتسامة جراح وتفاؤلها وحبها للحياة، لم تغب عن تفكيري للحظة، كل ما كنت أتمناه الآن هو وجود وسيم بجانبي، ليكفكف دموعي ويعيد ابتسامتي بروحه الجميلة، هو نصفي الآخر ورفيق الأسود قبل توهج البياض في دواخله، اعتدت أن أسمع صوته كل ليلة قبل الخلود إلى النوم، لكنَّ الفوضى في قلبي جعلتني أتردد من مجاملته في مكالمة كاذبة يكون فيها صوتي كابتسامة صفراء مخفية المعالم.

فتحت هاتفي، تارة أمسح دموعي، وتارة أخرى أضغط على لوحة الأرقام، صفر أربعة أربعة.....، وكلما تذكرت بُعدَه وقلقه الذي سأسببه له أضع هاتفي جانبا، فهو لن يستطيع فعل شيء سوى التخفيف عني ببعض الكلمات التي أعرفها جيدًا، حضنت هاتفي وحاولت النوم.

اخترق خيط الشمس الذهبي حجرتي الصغيرة كي يجفف وسادتي، استيقظت على صوت أحدهم أسفل الشارع، هو صوت اعتدت سماعه دائمًا، لم يغب عني لحظة واحدة، قفزت من سريري

نحو الشرفة، العم أبو أحمد الذي كان يذكرني بحلوى العيد، ما زال صوته الحنون مألوفًا لديّ، عربته الثقيلة، وظهره المحنيّ، كنت أرى فيهما عذب الحياة وعذابها.

ودون وعي منّي، ناديته بأعلى صوتي..

- عم أبو أحمد، عم أبو أحمد!

بدأ ذلك الرجل العجوز يلف رأسه يمينًا ويسارًا باحثًا عن مصدر الصوت، رفع رأسه إلى أعلى وحاول جاهدًا التمعّن فيّ ليعرف هويتي، لكنَّ نظره الضعيف خانه هذه المرة.

لبست حذائي ونزلت بسرعة إليه لآخذ بعضًا من الحلوى القديمة التي مازال طعمها في فمي حتى الآن، البيت هادئ جدًا، جميعهم نيام، والساعة لم تتجاوز السادسة صباحًا.

بلهفة واشتياق:

- عم أبو أحمد، ألم تعرفني؟!

اتسع بؤبؤه، وغزت التجاعيد تفاصيله..

- لجين!، آسف يا بنتي، عمري تجاوز السبعين ونظري يخونني كثيرًا.

- قبل عدة سنوات يا عمي، كان الكعك المُحلّى وجبة فطوري الأولى، كنت أترك اللعب مع أصدقائي حين أسمع خطواتك تقترب من المكان،

رائحة ذاك الكعك المحشوّ بالعجوة تخترق أنفي، فيه أشمُّ عبق الطفولة.

- كم كبرتِ يا ابنتي، جميلةٌ أنتِ إلى الآن بكل شيء فيكِ، أذكركِ حين كنت أفضّلك على كل الصغار في الحيّ، وأضع لكِ بدل الكعكة اثنتين، كنتِ تحبينها حلوة المذاق جدًا، سأضع لكِ بعضا منها، أظنكِ اشتقتِ لها.

أيام مضت، وها نحن نواجه الحياة بحلوها ومرّها ولينها وقساوتها، تتشابه الساعات وتختلف الأحداث، وبين كل تشابه واختلاف نغرق في ألف دوامة ودوامة.

- ضع لي الكثير من السكّر على الكعك يا عمي، املأ مساماتها قطرًا.

- تفضلي يا ابنتي.

حملت فطوري، وأنا في الطريق تذكّرت أنّي لم أعطِهِ ثمن تعبه، عُدتُ إليهِ مهرولة..

- أعتذر منك، تفضل.

- ما بال عينيك الخضراوتين متعبتان ووجهك مصفرٌّ هكذا يا لجين؟ سأقول لكِ بضع كلمات ضعيهما أمامك، خبئيها في ثنايا روحك، واستعيديها وقت حاجتك، حين نبالغ في الحزن، نفقد سيطرتنا على أنفسنا فتصبح الحياة سوداءَ قاتمة، ننسى كل الأيام

الجميلة برفقة من نحب، لنظلم أنفسنا ومن حولنا، نظن بأن الحياة ظالمة، قاسية، قاتلة للسعادة، فنكون كمن يرى نقطة سوداء على ورقة بيضاء، تموت حيويتنا، ونكبر أربعين عامًا، وفي الفرح نفقد سيطرتنا أيضًا، لنعود أطفالًا، وكأن ما ينقصنا فقط أسنانا لبنية، لتشهد أنّا ما زلنا صغارًا، نقفز فرحا، وتلمع وجوهنا بهاءً، لنصغر أربعين عاما، في الحقيقة، ليس العمر الذي يكبر ويصغر، بل قلوبنا، التي تظل تحن للحلوى، وتحلم بالمستقبل، وتصنع أجنحة تطير بها نحو واقع متغير، فلسفة الأعمار قاتلة يا ابنتي، ابنِ لكِ قصرًا في قلبك، واعلمي أنكِ تستحقين أن تكوني سعيدة.

غادر العم أبو أحمد، وكأن هناك من بعثه لينطق بهذه الأسطورة التي زرعت فيَّ روحًا جديدة، ووجنتين متوردتين، وابتسامة شقّت ثغري رغما عني.

أنا في طريق عودتي إلى المنزل، راحة نفسية اخترقت جسدي المنهك، أبطئ في خطواتي، لأستشعر كل ذرة تراب تلمسها قدماي، استذكرت أيامي الجنونية هنا، كنت ألعب مع أطفال الحيّ، وأسمع صوت أمي من الشرفة تنادي عليّ وتوبخني على تأخري، تغيرات كثيرة حدثت في هذه المنطقة، وكأن أشياء كثيرة تبدلت في كل يوم مرّ أثناء غيابي.

سأفتح باب المنزل رويدًا رويدًا، كي لا تستيقظ عائلتي، سأخفي

الكعك خلف ظهري، كي أتقاسمه مع جنى.

أمي تجلس وحيدة في غرفة المعيشة، تهتز قدميها بتوتر:

- لجين! أين كنتِ؟! ما هذا الذي تخفينه وراء ظهركِ؟!

- أمي، لا تقلقي، كنت أشتري بعض الكعك.

- لا تفعلي ذلك مرة أخرى دون أن تخبريني، دخلت غرفتك ولم أجدكِ، فقلقتُ عليك!

أمي كما هي، لم ولن تتغير يوما، سأبقى في نظرها تلك الطفلة الصغيرة المدللة، التي مهما كبرت يجب أن تعطي تقريرًا مفصّلًا لكل تحركاتها، هي الوحيدة القادرة على فهم الكلام دون البوح به، تصنع من عتابها لي وشاحًا يحميني من منعطفات الحياة الشائكة، بئر أسراري، و سمفونيتي المفضلة، أختي الكبرى، و طبيبتي النفسية، هي كتلة من الجمال اجتمعت في إنسانة واحدة لن تتكرر، حتى طعامها فيه نَفَسُ الحب والوطن، حين أحزن، يكفي أن أضع رأسي على حجرها، لأفرّغ كل الهموم في لمسة واحدة منها على شعري، أحبها، وأحب تفاصيلها، وأشتاق لها حتى في وجودها، يومي لا يمرّ بسلام دون ممازحتها، حتى أثير غضبها، لتقول لي «مجنونة أنتِ»، نعم أنا مجنونة يا أمي، ولن أعقل أبدًا، سأبقى تلك الشقية حتى لو جاوزت كل العمر.

دخلت غرفتي، وتفقدّتُ هاتفي، لم أجد أي مكالمات فائتة إلى

الآن، أين وسيم؟، لم أعتد على غيابه كل هذه الساعات، لربما هو نائم الآن، سأحادثه بعد ساعتين.

كنت أفرّغ حقيبة السفر في الخزانة، كل الملابس لها رونق خاص بالنسبة إليَّ، ألوانها، تفاصيلها، أحاول دائمًا أن أكون غريبة في كل شيء، بالطبع هذا لا يعجب أمي، تطلب مني دائمًا أن أكون رسمية جدًا في ملبسي، ولكن كيف الرسمية والجنون سيجتمعان في قلب أنثى واحدة؟ أحب العشوائية والازدواجية في الألوان، لكن برتابة، أصنع في نفسي كتلة من التمازجات، يصعب على غير المقربين مني تفسيرها.

كوفيتي البيضاء والسوداء، أجمل الأشياء التي أحب ارتدائها، أرى فيها فلسطين الضائعة بين شباك الانقسام، لطالما حلمت بالاستقرار في وطن واحد، دون حدود بنيناها في بأنفسنا، لكن سوسة التفرقة قتلت رونق الجهاد، التفرقة العربية تخلق كل يوم ألف حاجز في عروبتنا، أصبحنا نصارع بعضنا على حلبة العدو، لكنني أعلم أنه سيأتي يومٌ على وطني يصدح فيه التكبير في الأقصى، فتركع عمَّان على صوته، وسيبكي الطفل في غزة، فتبتل بدموعه كل الخلجان، سيموت الشهيد في نابلس، والخليل، و بيت لحم، فتحمل الجولان نعشه، ستخرج من رام الله وجنين والقدس مسيرات، فتهتف لأجلها حوران، وكلما قرأت كلمات محمود درويش «بلادي البعيدة عنّي كقلبي، بلادي القريبة مني كسجني، لماذا أغنّي»، أتساءل، كم بعدًا

يلزمني كي أُسجن في وطني وأكون أنا سجّان نفسي؟

- لجين، الفطور جاهز.

العائلة مجتمعة على طاولة الفطور، كم اشتقت لخبز الطابون وزيت الزيتون وزعتر بلادي الأخضر، حتى الشاي له مذاقٌ آخر حين يكون ممزوجًا بالطمأنينة.

نظرات والدي باتت معتادة بالنسبة إليَّ، يخفي خلف نظراته أسئلة كثيرة حول وسيم، جدالي مع أبي لم ينتهِ منذ أول مرة لبست فيها خاتمي، الصمت كسا أفواهنا، وحتى صوت كوب الشاي حين يرتطم بالطاولة يكون مزعجًا في حضرة هذا الهدوء، وكالعادة، يبدأ أبي بسؤاله الروتيني..

- ما هي أخبارك مع وسيم؟

أبي غيرُ معجبٍ بالإجابات المختصرة، ففي كل مرة أقول فيها أننا بخير، لا يصدّق، حالة الشرود والضياع والانعزال التي أعيشها، تجعله يفكّر دائما في مستقبلي مع وسيم، هو حتى هذا اليوم غير مقتنع به، وينتظر اللحظة التي أطلب فيها الانفصال عنه.

- نحن بخير يا أبي، لا تقلق.

والدي رجل قوي بطبعه، كافح وجاهد كي يصل إلى درجة رفيعة في العلم، يقدّس العمل والإنجاز ويحترم المواعيد جدًا، حنون بشكل

خيالي، وقلبه يتسع الأرض بمن عليها، يحب مساعدة الآخرين، ولا يرفض طلبا لأحد لجأ إليه، يفضّل الخير لغيره على نفسه، عصبي وصارم أحيانًا، يكره الضعف والتراجع، يخاف دائمًا على عائلته من رجس الأشرار، يتخذ القرارات بحكمة وحنكة، يخطط بشكل استراتيجي، ويعشق تراب الوطن.

- إلى متى ستبقين ضعيفة هكذا؟ ألم ترغبي بإكمال الماجستير والعمل؟ هل أنتِ سعيدة بهذا التشدد الذي يقوم به خطيبك؟ لا شيء يُنقِص من قدر المرأة إن أكملت تعليمها وعملت في مجالها ضمن ضوابط، يكفيكِ انصياعا لأوامر غير منطقية، كوني أنتِ تلك الفتاة التي زرعنا بها حب الإنجاز والتطوير، حتى صديقاتك، قيّد علاقتكِ بهن، لا يريد منكِ الاختلاط بأحد، يتدخل في أدقّ تفاصيل حياتك، عصبيّ بطبعه ولا يحب النقاش والجدال، لن أكون سعيدًا برؤيتك مهزومةً، شخصيتك الحالمة بدأت بالاندثار يا لجين.

وسيم صارم بطبعه، عصبيٌ، قاسٍ أحيانًا، أفكاره متخبِّطة، لا يعرف وجهته تمامًا، تهمهُ نظرة الناس عنه أكثر من إيمانه بمبادئه، أنا أعلم عيوبَهُ، لكنّي أقنع نفسي دائمًا بأنه سيتغيّر، وإلى الآن وهو على نفس الحال، بل ويزيدني اختناقا، أراهن دائمًا على أن زواجي به سيغيره قليلًا، قلبي يرتجف دومًا مع اقتراب موعد الزفاف، لكن للحب النصيب الأكبر في حل الخلافات.

صوت رنين هاتفي قطع حديثنا، إنه وسيم.

بجمود وهدوء:

- وسيم، كيف أنت؟

- أهلًا حبيبتي، أنا بخير كيف حالك أنتِ؟

- حالي لا بأس به، أعتذر عن إغلاق هاتفي ليلة أمس، كنت مرهقة قليلًا.

- باغتني النعاس أمس فجأة عزيزتي ولم ألحظ إغلاقه، والآن يجب أن أذهب لديَّ موعد مهم جدًا.

هذه المرة الأولى التي أشعر فيها بضيق من محادثة وسيم، هدوئي، جمودي، وحتى حالي الذي وصفته بالإرهاق، لم يحركّوا قلبه أو حتى لسانه للسؤال عن السبب.

كلّما شعرت بالتيه من تصرفاته ألجأ لمذكراته، مفتاح كل الشكوك في قلبي، أبتسم مع صفحاته، وأغوص في أحلامه المبهمة بالنسبة لي، أقرأ تعابير وجهه من خطه المائل والمتعرّج حين يكتب بعجلة، وكأن قلبه يخفق عشرين مرة في الثانية، هكذا فقط أكتشف غموضه المستتر تحت ابتسامته وحروفه الميِّتة.

في ربيعي الأول:

«- التقطي لي بعضًا من تلك البيضاء-، منذ الصغر وهذه الجميلة

تطوّق أنظاري، درويش، فيروز، وكل العظماء تغّنوا في تفاصيلك، سحر الجاذبية الممنوعة من صرف المشاعر عنكِ، تصيح البلابل على غصنك المعزول عن بقية الأشياء حولك، هالة الذكريات تتكوم فيكِ، حتى أن العشاق و الممنوعين من الحب يذكرونكِ، الصبي في بداية أيامه الدراسية كنتِ بطلة صباحه، حين كان يقفز على قدميه بقوّة ليصل إليكِ ويلتقط شيئًا منك، أما تلك الصغيرة حين تنام على كتف أبيها وتراهُ يغازل شعرها الذهبي فيكِ، والعجوز الحائرة في فراشها المسروق من دفء المحبة القديم حين كان يصنع لها ذاك الرجل فنجانًا من معشوقته السمراء ويحيطها بكِ، يذكركِ الشتاء و تمازجات الحروف بالغزل المشروع، أنتِ باقة من السعادة في زهرة، أنتِ ياسمينتي المجنونة في كل الساعات، أنتِ مسك روحي والختام».

أغلقت عينيي للحظة، ياسمين، والياسمين، والجادور، وغزله المتلحّف بالألغاز، شعرت وكأنني أقرأ قصة عشق تائهة بين قوقعة الاسترجاع.

أذكر المرة الأولى التي حصلت فيها على مذكراته، كانت يوم خطبتنا، حين وجدته على مكتبه، فضولي زاد أكثر حين رأيت انفعاله الزائد حين أمسكته وفتحت الصفحة الأولى، سحبه مني بقوة، وطلب مني عدم المساس به لأمر يخصه، لم أتوقف عن الإلحاح عليه لآخذه، كنت على يقين بأني لن أفهم وسيم دون هذه الأوراق.

في هذه الأثناء، كانت جنى تدق باب منزلي، خبأت دفتر مذكراته تحت وسادتي، واستقبلتها باشتياق.

- لجين! ما هذا الذي أراه!، كعك العم أبو أحمد! عرفته من رائحته، يبدو شهيًا جدًا.

- هذا لأجلك.

- أراكِ غير سعيدة، ماذا هناك؟

- لا شيء يذكر.

- وهل تظنينني أصدق عينيك المراوغتين هذه؟ أحتاج تفاصيلَ كاملةً، لكن ليس هنا، سآخذك إلى مكان رائع، بدّلي ملابسك، سأنتظركِ في الأسفل.

إخفائي لمشاكلي خدعة لا تمرُّ على جنى، فهي تعلم خلال مكالمة قصيرة من شهيقي وزفيري هل أنا مبتسمة الثغر أم قاتمة الملامح، كانت تقول لي دائمًا، بأن لعبتها المفضلة هي الألوان، حين يختلط اللون الزمردي مع الأسود في حكاية أقصّها عليها، تعلم الكاذبة من الصادقة، تميّز ضحكة القلب من غيرها، هي ليست فقط روحي التي أحبها، بل ودليلي السياحي الاحترافي، تعرف كل الزقاق في المدينة، تختار دائمًا الأماكن الهادئة والخضراء، والتي لا يزورها الكثير من الناس، أو تفضّل أحيانا أخرى المناطق العتيقة، التي ترى فيها جمال الشام، وروح الأصالة والعراقة.

وكما توقعت تمامًا، مكاننا المفضل، أنيسة وحدتنا، رفيقة أقلامنا، مالكة القلب والروح والحكايا، هي مكتبة البلدية، هنا هدوء المقابر حولنا، وصمت مطبق يتغلغل في المكان، القرّاء أمامهم صفحات متجمعة، لا أدري فعلًا ما يتصفحونه، كتاب مدرسي...؟ كتاب معلوماتي...؟ أو ربما يلعبون الحروف المتقاطعة، ينظرون إلى بعضهم البعض، دعوني أقول" يسترقون النظرات.. "، أمينة المكتبة تمشي بين الممرات، وصوت حذائها يشتت أفكارهم، يتحادثون همسًا، بصوت منخفض، وحين تأتي ...يصمتون... ثم يضحكون... ثم يصمتون لعودتها.

في المكتبة، أرى في وجوههم كلمات صامتة، يخفونها في صفحات الكتاب الثابتة، التي تبقى على الصفحة نفسها، ليكون كتابهم مسقط نظراتهم، لكن عقلهم مغيب عن المكان، تجد هنا حياة الصمت المتحدثة، بالنظرات.. بالكلمات.. بالوجوه المغيبة، تشهد جدرانها على ساعات الزمن المتوقفة عندها، لا شيء يشبه ممراتها المخيفة، بين أقسامها التاريخية والفلسفية والعلمية والأدبية، نقف ساعات والحيرة تأكل ملامحنا، أي الكتب سنأخذ؟ هل نختار الحب، أم الحرية، أم الموت والحياة؟، وفي نهاية الأمر نختار أن نتحدث لبعضنا، ونترك الأوراق ليوم آخر.

- لجين، ما الذي يزعجك؟ أخبريني.

- أشعر أنني بين تيه واحتضار، أتقلب في اليوم ألف مرة بين صفحات الحاضر والمستقبل، لم أعد تلك الفتاة التي تفيض السعادة من بين أصابعها لتملأ بها أيادي الفارغين من الفرح، فاقد الشيء لا يعطيه يا جنى.

- أين وسيم عنكِ؟

- لم أعتد على غياب وسيم بمثل هذا الشكل، لم يهدأ هاتفي يوما من رسائله المتتالية ومكالماته المتسارعة، الساعة الآن السادسة مساءً ولم يحادثني سوى مرة واحدة على عجل.

- أعلم يا عزيزتي بأن أشباه الوجود في حضرة الغياب المتقطع معدوم، لا نرى منه سوى ظلال الذكريات المختبئة بين حلقات الأيام الروتينية في ساعات بعد منتصف الليل، وكأنها حين تدق الثانية عشرة، يأتي الأمير على حصانه الأبيض، وما تلبث أن تشعث فتاته بعد مضي العمر و انقضاء فترة الحياة بين انتظار و اشتياق، ثم يأتي مرة أخرى في زيارة خاطفة وكأن قدمًا يضعها في حاضرك المنتظر، و قدمًا أخرى من مستقبلك المتغبش، لتعودي إلى حالة عدم الاتزان، فتجلسي على شرفتك تنظرين إليه في وجوه المارة العابرة، و تسمعين صوته في ثنايا بكاء السماء المتيقظة في جمجمتك، تلملمين نفسك ثانية بعد اقتراب عطره المقلد الهارب، فأنصاف الأشياء تميل إلى الانعدام، كحضوره في الغياب، وغيابه في الحضور، أليس كذلك؟

لم اشعر بأن جنى تتحدث عني، بل أن هناك شيئًا يستوطن فؤادها، حروفها خرجت عن مسار حديثي قليلًا، قلبها المتيّم جعل عينيها تلمعان وتبرقان كأنهما لؤلؤ زيتي يميل إلى الاخضرار، وجهها الذي يزيد حمره كلما تفاعلت دقات قلبها بتوترها الملحوظ.

- جنى، ما حال قلبكِ أنتِ يا جميلتي؟

- لم أتخيل يومًا أنني سأقع فريسة في مصيدة الحب، أنتِ تعلمين يا لجين أنني ضعيفة أمام الشعراء، أنا متيّمة بالكلمات، والآن به، يصنع لي كل ليلة باقة من الحروف المطرّزة بكل الألوان المتمازجة، في صوته، أرى عذوبة الألم المختلط بالأمل، أخاف يومًا من تضاربات القدر على رأسه، عشريني العمر، سبعينيّ الحكمة، أما عينيه، فهما حكاية أخرى، أغوص بهما، لتخرجني رمشته إلى شاطئ العقلانية والاتزان.

- ياه يا جنى، كنت دائما أرى في نصفك الآخر شاعرًا، وكاتبًا، تارة يتغنّى بغمّازتك الشقية، وتارة أخرى بعينيكِ الملائكية، أما عن شعرك المنسدل الطويل، سيقف الشعر عاجزًا عن لمس أطرافه، ما اسم هذا الصائد؟

- حسن، يصيغ من تراكيب الجمل حسن المعاني والازدواجيات، يأمر حروفه بالاصطفاف والتناغم والعمل الجماعي لبدء معركة الأفضلية، ليثبت لي أنه الأجدر بي، يحمل سيوف اللغة

ويصوغ من غضبها سلسلة مطولة من المعاجم العربية، يفتح للكسرة ذراعيه لضمّة تخفي سكون الشدة عن جرة أخرى حلّت مكانها في كل الكلمات المنتهية بتاء تأنيث رقيقة سرقت جميع الضمائر بحركة واحدة من كل الذكور الممنوعين من صرف المشاعر في جموع الحاضرين، فأقف أنا تائهة بين تاء تأنيثه الهادئة، و سكونه المحبب، و رجولته الطاغية، فمن أنا يا لجين أمام هذه اللوحة الجنونية المبعثرة...!

لم أمسك نفسي حينها من الضحك، تلك المجنونة التي كانت توبّخ الحب وتسقطه من أعلى أبراج الخيانة، وقعت في شباكه أخيرًا، شماتة الأصدقاء المحببة هنا واجبه، أخيرًا سأراها تسهر الليل اشتياقا، وتتوه بين النجوم عشقًا، وتقول لي في آخر اليوم بلهفة «لن أستطيع العيش دونه»، إني أقدّس الحب حين يكون مرسومًا على خطة محكمة يطوقها الاحترام والاهتمام والانسجام، فلم أصدّق يومًا بأن الحب ينتهي بالزواج، بل يبدأ به، كان هذا الخبر بالنسبة لي الأجمل من بين كل لحظاتي في فلسطين حتى الآن.

أنا عائدة إلى المنزل، شرود ملأ أضلعي، عيناي تائهتان خارج السيارة في نقطة واحدة لا تتحرك، هاتفي لم يهتز أبدًا طوال هذا الوقت، أخاف أن أؤمن بأن البعيد عن العين بعيد عن القلب، لطالما كذّبت هذه المقولة، فكيف لروح انغمست في جسدين أن تفرقها المسافات، فهل القلب مرتبط بمنطقة جغرافية أم بالتخاطر الفكري؟

يعيد إلي السائق ما تبقى من المال..

- تفضلي يا ابنتي، يا ابنتي إليك المال!

- أعتذر منك، شكرًا لك.

سأدخل منزلي، وأنا أعلم بأن مظاهر التوتر تظهر علي، لن أنتهي من التساؤلات المعتادة، فنحن هنا كالجسد الواحد، حين يحزن أحدنا، تخيّم ضبابية التعاسة على البيت كله، فكيف وأنا ابنتهم الوحيدة؟

سأتصل بوسيم هذه المرة، لكن أعترف بأنها من باب الواجب ورمي المسؤولية عن عاتقي، ليس رغبة بسماع صوته، ولا الاشتياق إليه، لقد حملت في قلبي كثيرًا عليه، رغم أني لا أملك أي دليل على ما أفكر به أو أشعر به نحوه، لكن الإحساس نصف الحقيقة.

بجمود آخر ونفسية غير متزنة..

- وسيم، كيف حالك؟

- أنا بخير كيف حالك أنت؟

- أعطني تبريرًا واحدًا لغيابك طوال هذا اليوم

يصمت كثيرا ويجيب بانفعال..

- وهل يجب أن أتصل أنا دومًا، لا بأس إن اتصلتِ أنتِ

لم أتوقع أن كبريائه هو السبب، حين تدخل الكرامة في الحب، يبدأ أن يقل شيئا فشيئا، لم يسبق وأن نظرنا إلى من سيبادر بالاطمئنان، ليس لدي مشكلة أبدًا في أن أبادر بالسؤال عنه دوما، لكن الفتاة بطبعها تعشق الاهتمام، ولكن للاهتمام مدة صلاحية تنتهي حين يُطلب، أشعل وسيم في رأسي مئة عود ثقاب لن تنطفئ، ويستحيل أن أعاتبه أبدًا، هكذا أنا دومًا، أملأ قلبي بالضغوطات، وأنفجر في نفسي، أنا أؤمن بأن السعادة إما أن أشتريها من رصيد كرامتي، أعتذر، وأجامل، وأغفر، وأمسح الدموع وأتناسى، و إما أن أكتم حزني بين جدران الخطايا وأكابر، فلن أحتاج أن أُسمع غيري أنين آهاتي، لتخترق الصدى و تجيبها الخيبات.

سأخرج مذكراته من تحت وسادتي، لأرى ماذا سيقع في يدي هذه المرة.

احتواء أو انسحاب:

«لن أكون مجبرًا على أي علاقة تسلب مني السعادة، فالعلاقات تحيي قلبا عطشا، ليس للتدمير النفسي المستمر »

شعرت وكأنها رسالة ربانية نزلت من السماء لتخبرني بأن الإنسان هو وحده من يعلم إن كان سعيدًا أم لا، والمقياس تراه فيمن تحب.

دخل والدي إلى غرفتي وجلس على طرف سريري، ما كان عليّ حينها إلا أن أعدّل من جلستي وأخفي دفتر المذكرات تحت الوسادة

مرة أخرى.

- لجين، لقد أخبرني صديق لي بأن هنالك شاغر للعمل، ويريدك أنتِ، مكتب المحاماة قريب جدًا من المنزل، ستكتسبين خبرة جيدة، وتعتمدين على نفسك، ما رأيك؟

كنت أتمنى دائمًا أن أعمل في مجال المحاماة، طموحي دائمًا يأبى التوقف، ما الفرق بيني وبين الجاهل إن لم أعمل بشهادتي التي كلفتني أربعة سنوات من الكد والاجتهاد؟

- سأعطيك إجابتي غدا يا والدي، سأفكر بالأمر.

تزداد رغبتي في العمل كل يوم بعد رؤية الظلم والرشوة وانعدام المصداقية، حين ترى صاحب ذلك الكرسي المرصّع بعرق الشرفاء، يلقى على مسامعنا حكاية نجاحه المحرّفة، تشعر وكأنك أشبه ببئر نفط أسود يسحبون من دمه ليعيش به ذلك الأبيض الثري في دولة تعاني من التمييز العنصري، لدي إيمان عميق بأنني سأكون محامية مخلصة، وسيدة مناسبة في المكان المناسب.

سأبعث لوسيم برسالة نصية لأخبره عن الأمر، لا أريد الاتصال به على أية حال.

" أسعد الله مساءك، لقد عرض عليّ والدي اليوم عرضًا للعمل، وأنا أراه مناسبًا جدًا، مللت الجلوس بين أربعة جدران".

كنت أعلم بأنه لن يكتفي بإرسال رسالة، بل سيحادثني ليفهم الأمر بعمق:

- أنتِ تعلمين وجهة نظري بموضوع العمل، لا نقاش في ذلك مطلقًا، انتهى الأمر.

- لكنـ...!

- دون لكن، أخبري والدك أنك لا ترغبين بذلك.

أغلق الهاتف بوجهي، تصرفاته مريبة جدًا، لقد بدأ بعد أكثر من عامين على ارتباطنا بإظهار جلده المخفي والمتلون، أنا أعلم أنه سيتصل ليعتذر كعادته، لكن جمودًا وبرودًا أحاط مشاعري نحوه، لم أعد أشعر بكلمة «أحبك» كما كنت مسبقًا، أخاف أن ينتفض قلبي منك يا وسيم بعد كل هذا الحب.

أحاول دائمًا الابتعاد عن المشاكل، وليبقى وسيم في الصورة السليمة أمام والداي، ألوم نفسي وأضعه موضع البريء والمحايد، أبي يعلم أنني أتوق للعمل جدًا، لكن الكذب سيد الموقف في مثل هذه الأحداث الموحشة.

ضيق قلبي كل ليلة قبل النوم، ساعات من الشرود في السقف، حتى يسرق النعاس مني التخطيط للمستقبل غير الواضح، كيف ستكون أيامي يا ترى؟، وانطفأت عيناي وأغمضت أجفانها، حالمة بترتيب الفوضى العارمة.

هاتفي يرن، الساعة الآن الثالثة فجرًا، لم أعتد أن يطرق أحد باب أحلامي ليلا في مثل هذا الوقت، إنها جنى، أظنها ستخبرني بأنها تشتاق إليه، ولم تنم حتى الآن، وأن قلبها قلقٌ عليه كما دائمًا.

بصوت ناعس:

- جنى، لا تقولي لي بأن....
- أنا أم جنى يا لجين، أعتذر عن الاتصال بهذا الوقت المتأخر
- لا لا داعي للاعتذار أبدًا، ما بال صوتك متحشرجٌ؟ ما الأمر!
- عادت تلك الحالة لجنى أرجوك أن تأتي فورا، لا تريد الذهاب إلى المشفى إلا بحضورك.
- حالًا.. حالًا...!

تشنجات عصبية تصيب جنى منذ فترة طويلة، حين يقلقها أمر ما، أو تشعر بعشوائية في المشاعر، تتيبس أصابعها ويبرد قلبها، وتتجمد ملامحها عن كل التحركات، أشعر بأن التوتر أكل مفاصلي، غير قادرة على تبديل ملابسي، ولا حتى الترنّح من فراشي، هي طفلتي المدللة وروحي النابضة التي لا أستطيع الاستغناء عنها، وبالرغم من أن منزلها ملاصق لمنزلي إلا أنني شعرت ببعد المسافة كضائعة تبحث عن الأمل في صفوف النائمين.

طرقت الباب بلهفة مبالغة، وجه الأم لا يفسر، وتلك الجميلة مستلقية على ظهرها وتشير إليّ بلغة الحواس كي اقترب منها، شفتاها المائلة، وعينيها يغتالهما الضجيج، يدها مستقيمة ثابتة، ووجنتيها تشرّبتا بالبرود.

لم أستطع منع نفسي من البكاء، أشعر أن ألمها يذوب في جسدي، وصمتها أطبق على شفتي الحديث، هي ليست بحاجة إلى طبيب، أو إبرة تغيبها عن الوعي لساعات، فإن الداء والدواء فيها، والحياة والموت بين ابتسامة وعبوس.

أمسكت يدها اليمنى وبدأت بتدليكها من أسفل إلى أعلى لتحريك الدم في شرايينها كما اعتدت دائما، أما هاتفها فكان أسير يدها اليسرى، علمت حينها أن مكالمة قاسية استوطنت جسر قلبها لترتجف إلى هذا الحد، لن أسألها عن شيء، سأدعها ترتاح قليلا.

خرج صوتها المتعب:

- الشعراء متعِبون، الشعراء لا يليقون بامرأة غيور مثلي، هذه الشقراء تغازل كلماته، وتلك السمراء تمسك كتابا لشاعر لم تقرأ له يومًا فقط لتجد بينهما خيطًا تغوص من خلاله بين مكنوناته، والحنطية تسرّح شعرها ليخط في آخر اليوم عنها بيت قصيد، كل حروفه المسروقة من حُسنِ النساء يغزلها بحبره المتمرن ليقول لي يا سمراء وأنا بيضاء الملامح.

اكتفيت بالنظر إلى انفعالاتها المتوهجة، تبادر إلى ذهني نزار

قباني، شاعر المرأة والحب، مغازل النساء وعاشق الكينونة الأنثوية، وأنا التي كنت أغرق بدواوينه وهو يقول «أنت الآن أهمّ امرأة بعد ولادة هذا العام، أنت امرأة لا أحسبها بالساعات وبالأيام»، أغفر لصديقتي رجفاتها، فالغيرة كشوك صبّار تنّخر بين أصابع العشّاق ليفترقوا.

هاتفها يرن الآن، إنه حسن، لا أعلم ماذا يقول لها، لكن حياء ابتسامتها، وتورّد خدّيها، وضحكاتها المختبئة، أعلمتني بأنه اعتذار، أو حروف عسجدية أحاطت العتاب وأسكتته، تركتها في هالتها الفيروزية بعد أن تأكدت عودة صحتها تماما كما كانت.

عدت إلى منزلي وأنا أفكر، كيف يمكن لنا نحن الإناث أن نصبغ قلبنا بالتسامح بمجرد رسالة اعتذار نصية أو حروف مجبرة على الخروج لحفظ حقوق الامتلاك!، سأكون كاذبة وأصف الرجال بالساذجين.

أحاول التسلل إلى منزلي خفية كي لا تزعج خطواتي أحلام عائلتي، وفي كل مرة تستيقظ أمي على صوتي الخافت ليبدأ التحقيق التفصيلي بالمكان والزمان والتنقلات:

- أين كنتِ يا لجين؟

- عند جنى يا أمي، كانت متعبة قليلا

أمي تحب جنى وكأنها ابنتها التي لم تلدها، فكل الأشياء في حضرتها مستجابة.

لربما أجمل ما يميز احتوائي وأمي هي الثقة المغروسة منذ الصغر لذلك لم أفوِّت فرصة الجلوس معها في ليلة يكون فيها الكل نيام، مهما شعرتُ بالقوة فأنا أمتلك شيئا في يسار جسدي يتفتت بسرعة وأبقى بحاجة ذاك الصدر الحنون الذي يناجي روحي ويسلب منه كل الطاقات السلبية.

- أمي، هل لي بحديث معكِ؟

- بالتأكيد يا ابنتي، أستشعر كلاما كثيرا في عينيكِ منذ فترة طويلة

- أخبريني يا أمي، لماذا الرجال تخون وتتقلّب؟

- يا ابنتي، هناك صنف من الرجال تربى على يد ملكة علّمته كيف يكون القلب حجرة واحدة لا تتسع إلا لتاج امرأة أولى لا ثانية بعدها، وأما الصنف الآخر، يرى في تشريع الله له أربع نساء دستورًا، واحدة لقلبه، وثانية لجسده، وثالثة لأطفاله، ورابعة لمعدته، والصنف الثالث يا صغيرتي، هو من لا يجد في نصفه الآخر مملكة للسعادة، وهنا يكون الذنب ذنبها، فحين تكون له بيتًا، يكون لها وطنًا.

اعترتني مشاعر سوداوية في كل لفظة خيانة شممت رائحتها بين سطور الكلام، حين قيل بأن الحب مدرسة لتعليم حروف الهجاء في الاحترام والاهتمام لم أمنع نفسي من التصديق، لربما قد حان الوقت الذي سأفتح فيه خزائن روحانياتي إلى العنان، وأحكّم عقلي

بعد سنين طويلة كان فيها مغيّب بحضرة القلب والعاطفة، سأرى ماذا يخفي القدر لخاتمي هذا.

- لجين، أخبريني كيف هو وسيم يا ابنتي؟

حين نطق لسان أمي باسم وسيم، شعرت بأنني دخلت ضمن تمازجات عشوائية غير مفهومة، هل أقول لها بأنه ما زال في نظري ذاك الأسطوري الذي لا يتكرر، فأخون ثقتها بصدقي كي أريح خافقها بمستقبلي مخفيّ المعالم؟ أم أثبت لها صنفا رابعًا من الرجال المبعثرين بين أرصفة الطريق، يمشون خطوة ويعودون ألفا بالكلام المعسول والجميل بكل الأشياء عدا التفاهم، فتراه مزاجي المشاعر، تارة يذوب فيكِ عشقا ويطلق حريتك في لحظاته الهائمة، وتارة أخرى تظهر فيه شرقيته المعدومة من كل أساسيات الانسجام، وأنا العالقةُ بين الاثنين حبا وعزوفا، لكن من ذا الذي سيفهم محتوياتي دون خطأ في التفسير؟، اكتفيت بالصمت، وأبقيته سرًا في رأسي بقفل الوعد بعدم الخذلان، لن أكون سببا بإشعال قلب الأم لهفة وخوف وانتظار.

قبلّت يدها، ومسحت على وجهها بدفء..

- لا تخافي يا أمي، نحن بأفضل حال، أشهر قليلة وستجدين صغيرتك بفستانها الأبيض الملائكي.

عادت أمي إلى فراشها، وأنا أعلم بأنها لم تنم حيرةً وتفكيرًا.

كلما وضعت رأسي على وسادتي أردد «إلهي.. نفسي قائمة بين يديك، وقد أظلّها حسن التوكل عليك، فاصنع بي ما أنت أهله، ولا تعاملني بما أنا أهله»، أثق بأن مالك القلوب والأرواح لا يخيب دعاء الداعي إذا دعاه، وحين تلامس الأماني السحب، أصبح فقط حبيسة الإجابة.

موعد زفافنا يقترب أكثر، وشرخ قلبي نحو وسيم يتسّع، أرى كل يوم الأمل من مرآة سيارة مسرعة يصغر شيئا فشيئا، لكن سأكون تلك المرأة المحنّكة التي تنقذ الغريق قبل الغرق بلحظات، سأنتشِل السنتين وخاتمي المنحوت عليه تاريخ لقائنا على حساب كرامتي، سأحافظ على ما تبقّى من حبٍ حتى آخر رمق.

سأبدأ ساعاتي بإرسال رسالة إليه تشعل حنينه المرقّط بالغربة، تناغمت أصابعي على أزرار هاتفي لتخطَّ له قهوة يستشفها في أول صباحه:

«صباحك نرجسي معبّق بموسيقى موطني مع خيط برتقالي رفيع في سمائك الغريبة، أنت الحب وأنت غايتي الوحيدة، زارني في الحلم طيفك.. وطافت الأحلام».

خمس ساعات على إرسال هذه السطور، ولم أجد ردًا عليها، لم أخلْ يوما بأن ذاك البعيد سيجعلني أعتصر خيبة كما لو أنني تزوجته بطريقة تقليدية، ضاقت السبل واتسعت الأوجه، أيمكن بعد كل هذا

الحب المسعور، أن أقدّم طلبا للاستقالة؟

لن أتلف يومي وأنا أنتظر رسالته كالبلهاء أتعب رأسي في التفكير دون إجابة، وأنسى أن هذا النهار يعتبر مميزًا بعض الشيء.

اليوم سيعقد أخي الأكبر قرانه على من استوطنت كل جزء في مشاعره، وكان رجلًا حين أوفى بوعده وتوّج قلبها بالسعادة، «إليليا» فتاة طيبة جدًا، ضحكتها ساحرة، وجمالها العربي الأصيل يأسر الناظرين إليها، هي ابنة والديها الوحيدة، لا أخوات لها، مثلي تماما، قريبة من عمري، لذلك شعرت بها أكثر من أي شخص آخر، أحسن أخي اختيار شريكة أيامه التي عرفها على مقاعد دراسته في الجامعة، وجلب لي أختًا جديدة لم تكن بالحسبان.

«زوجتك ابنتي على سنة الله ورسوله......»

خلال جلسة قراءة الفاتحة، كانت عينا إليليا تلمعان كالفسيفساء السوداء شديدة النقاء، أما أخي فهذه أول مرة أرى وجهه مبتسمًا إلى هذا الحد، وصلتني دقات قلبهما عن بعد، مر عليّ حينها شريط يومي الأول مع وسيم، حين وقّعت على ورقة الزواج، كنت أشبه بفراشة تلوّن جناحيها بكل الضحكات الملائكية، لأطير في نهاية الأمر إلى سماء الحياة المنتظرة، كما إليليا الآن، لكن يبقى السؤال، هل سيبقى ثغر تلك الجميلة مبتسمًا حتى اللانهاية؟ أتمنى ذلك.

كان اليوم متعبًا جدًا، أنيقًا بتفاصيله الحالمة، جدران منزلنا

شهدت تاريخًا مقدسًا جديدًا، مسؤوليات مكومّة على قائمة الانتظار، كل واحد من أفراد عائلتي في غرفته الآن، الساعة تجاوزت الثانية عشر بعد منتصف الليل، هاتف أخي مشغول منذ أكثر من ساعة، و ضحكاته الخافتة تتسلل إلى مسامعي، أما هاتفي فما زال أسير توقعاتي الخائبة، لا مكالمات فائتة من وسيم، ولا حتى رسالة اطمئنان بالخطأ، لا بأس ببعض الأنانية وحب الذات في مثل هذه الحالة، سأنام بكل أريحية، و أغلق هاتفي كي أنعم بنوم هادئ لفترة طويلة حيث الغرق في اللامبالاة.

«الله أكبر.. الله أكبر»، صوت حنون ملائكي يقتحم أحلامي ليخبرني بأن الصلاة خير من النوم، في كل ساعة فجر أشعر بأن روحانيات قلبي تسبح في عالم الخشوع، أستنشق الأمل، و أُخرج بئس المشاعر القاتمة، زهور الياسمين مبللة بقطرات الندى الباردة، العصافير تبحث عن رزقها، أما الشوارع فارغة من كل الكسالى وتعج بالكادحين، سيناريو صباحي متكرر لكنه لا يعيد نفسه، في كل صباح تتجدد الحياة، أغسل قلبي بالدعاء، وأسجد خشية وحب، أكون أقرب ما أكون إلى الله، وأبعد من نفسي إلى، أتمتم في علم الغيب أسرار الجوارح، وأعلم أنها تصل من الأرض إلى سابع سماء.

سأستغل فرصة الهدوء هذه وأمسك قلمي، لربما أعيد تهيئة حبره بعد جفافه المرير لأشهر طويلة كنت أمسك فيها ورقتي وتبقى بيضاء للما لانهاية، أريد أن اكتب، أريد أن أصرخ من قعر هذا العجز، رغبة

تعتري أصابعي الصماء لتنطلق نحو عنان الأدب، لن أكتب لك يا وسيم، لن أعاقب قلمي المأسور بك، سأكتب لِذاتي..

«أنتِ، نعم أنتِ، أميلي رأسك عن المرآة قليلًا، و تحدثي إلى كل الأشياء عدا انعكاسك، أمسكي بيدكِ و اقفزي نحو المجهول، أسعدي نفسكِ بباقة زهور جدّليها بشعرك الذهبي و افرحي، ارتدي فستانك المزهر بكل الورود البنفسجية والبيضاء والعسلية، صومي عن الحزن، وافطري على فاكهة عطرة تمتزج فيها ضحكاتك المجنونة وقولي لنفسك، تستحقين أن تكوني سعيدة، أنتِ يا طفلة ما زالت تسرّح خصلات شعرها بمشطها المسنن و تضعه على عينيها، لتخفي فيه وجهها عن المارة، ظنًا منها بأنها جاوزت الخفية و حلّقت بين الكائنات الأسطورية الموجودة في كتب الأولين، أنتِ يا رفيقة أيامك، سيري على رصيف التحدي، و انظري تلك النظرة الحادة البريئة، واتجهي نحو الأفق، أعدكِ، ستنجحي، حاولي اختزال كل الحب في قبضة يدكِ الصغيرة، امسكيه بلطف، ولا تضغطي عليه بجدران أصابعك، كي لا تنزف الأحلام و تموت، و تشرب الوحدة كأس الأبدية».

نقطة وقف عندها قلمي، وأنا أعلم بأن النقاط كلها ستتجمع في صدري لتشكل خيطًا آخرًا من الضوء المشتعل بالزخرفات الجميلة، طويت ورقتي، وحملتها وعدًا على عاتقي، بأن أنفذ حروفها حرفيا.

أشعلت هاتفي الأبكم، الخالي من كل الرسائل العشوائية، انتابني القلق والخوف، أيمكن أن يكون وسيم أصيب بمكروه منعه من الاتصال؟

هاتفه لا يجيب، هذه المرة الثانية التي أتصل بها الآن، فرق التوقيت بين الدولتين لم يمنحني عذرًا بأن يكون نائما، كللتني المشاعر النازفة أكثر.

وبعد المكالمة السابعة رد على هاتفه، صوت الموسيقى صاخبة حوله، ضحكات هستيرية تقتلع جمجمة الرأس، وصوت وسيم المبتهج أثار حيرتي.

- أين أنت يا وسيم؟ الصوت مزعج لا أستطيع سماعك
- سأرفع من صوتي، هل تسمعيني الآن؟
- هل أنت في نادٍ ليلي!!
- أنا مع الأصدقاء نتحادث لاحقا

آخر ما توقعته أن يكون وسيم في حفل مسائي صاخب بدولة أجنبية حتى وقت متأخر من الليل، لم يفعلها يومًا طيلة مدة بقائنا جميعا في بريطانيا، حتى أنه كان يعطني دروسا في كيفية الحفاظ على النفس في مثل هذه الأماكن، وأنها وباء يجب الوقاية منه، بدأ الغيظ يقتحمني شيئا فشيئا، مللت تصرفاته البالية، وكأنه شخص آخر غير

الذي عرفته، ازدواجية أفكاره تبعثر صفوتي.

مر على هذه الحالة فترة طويلة، تركض الأيام حاملة معها انعزالًا تامًا عن الرؤيا، لا أستطيع حتى الآن تحديد وجهتي، إلى أين سأذهب؟، تتوالى الأحداث بسرعة، كل يوم في حياتي بات مشكلة بحد ذاتها، كل لحظة فيها تكون استذكارًا لمضامين قاسية، بقي شهر على عودة وسيم، سيعود بعد مدة دامت ثلاثة أشهر، وخلال هذه المدة كنت أشبه بورقة خريف ذابلة، تعيش على التبريرات وحل الخلافات المملة، ثم باعتذار صغير تعود المياه إلى محياها، ويعود الكلام المعسول المغلف بعبارات العشق الناشفة، لكن الدم في عروقي ما زال ثابت في مكانه.

كلما مررت بجانب إليليا ووجدت وجهها مزهرًا بالحياة، ترتعش قبعتي تقديسا لهذا الحب النقي، أرى في علاقتهما نموذجا للسعادة المشبعة بشتى أنواع الرقيّ، أثبت لي أخي بأن الرجال ليسوا واحدا، وأن الفتاة تكون تاجًا على رأس من امتلكها بكيانه، وما أمر به الآن ما هو إلا اختبار إما أن اجتازه، أو اتركه فارغًا للقدر.

التصوير، هو الشيء الذي يقوم بعملية تفريغ الطاقة السلبية لدي، حين أمسك عدستي، أشعر بأنني امتلكت عين الشارع، أو أن قرنيتي توقفت عن العمل، واستبدلتها بنظرة أخرى غير المألوفة، أحتاج إلى جولة استكشافية تصويرية رائعة بعد كل هذا الخمول الذي أصاب ذهني المنشغل، جنى هي الفتاة الوحيدة التي ألجأ إليها حين أكون

بأمس الحاجة لزيارة الطبيعة.

أصوات الباعة في الطرقات، ظهور محنية و أوجه أرهقها التعب، عربة ذاك العجوز أكبر من جثته، يصارع الأرض وهو يجرها تباعا، رائحة اللوز الأخضر والفراولة والبرتقال تملأ أرجاء البلدة، تلك الجميلة تمشي بصخب هادئ، و هؤلاء الذكور يلاحقونها بنظراتهم المريضة، أطفال يركضون و يطلبون قرشًا واحدًا مقابل حبة حلوى صغيرة، منهم من يردعهم وآخرون يملسون على رؤوسهم عطفا ومحبة، أما تلك المرأة تقطن على حافة الرصيف، تضع أمامها شالها الأسود، و الأموال تسقط عليها من الأعلى، مشاهد مبكية فعلًا، في البلدة يفاصل الغني على سعر ضمة الفجل من رجل لم يبع شيئا طوال اليوم، أما المطاعم ممتلئة بأمثال ذلك البرجوازي، الشارع هو ملجأ الأحداث والقصص، كل الأعين ترى، ولا واحدة منها تبصر الحياة بحلوها، عدستي التقطت كل ما تراه هناك، من ضحكة وبسمة ودمعة غارقة في الهموم، من كل بيت عامر وخراب، من كل زهرة وشجرة وشوكة وصبار، لا أخفي أن جنون صديقتي يعمل مفعول إبرة المخدر لأوجاعي.

وأعود إلى منزلي، وتعود عائلتي إلى أسئلتها الاعتيادية، وسيم هو محور كل علامات الاستفهام، وأنا أمرّ من باب البيت إلى غرفتي دون الالتفات إلى تساؤلاتهم التي لا تحمل أي نوع من الإجابة.

لامبالاتي خلقت نوعًا من الاطمئنان في خافق والديّ، ظنًا منهم بأن الروح عادت إلى مستقرها من جديد، كل ما في الأمر أنني مللت الحزن، ولم أعد أطيق وجهي على المرآة، وجهي المنكسر من كل معالمه الطفولية، أصبحت أبدو كعجوز جاوزت السبعين وأكثر.

انشغالات وسيم، ونفسه الضيق عن كل الأشياء التي تخص عالمنا، تحولاته المفاجئة، بروده القاسي، نفسيته المتقلبة عن المشاعر الصادقة، تجعلني ألعن الحب ألفا، وأفكر عشرات المرات قبل الضغط على أرقامه الضائعة، وكلما فكرت في انتشال نفسي، أدوس على قلبي وأرسل له برسالة نصيّة فيّاضة بشحنات عاطفية تحيي القلب قبل توقفه، لكن الصمت سيّد الموقف، حتى باتت هذه الشحنات سالبة متنافرة، لا أجد ردًّا أو تقلّبا على حروفي منه.

ثم يعود صاحب الأنفة العالية بالخضوع من جديد، «أنا لا أستطيع العيش دونكِ يا لجين»، وأعود مجددًا، وأستقبل ساعاتي بالفرح المؤقت حتى الغياب الأخير، كان يقول لي وسيم بعد كل خلاف بأنني طفلة، أزيل العتاب من قلبي بكلمة «أحبك»، وكأن مفعولها السحري غيّبني، أما الآن فلم أعد أُغيّب، بل افتّح عينيَّ أكثر على المجهول.

مع ابتسامة إيليا الجميلة، تأتني كل يوم حاملة معها فستان جديد، تخيّرني أيهما أجمل، هل يا لجين اختار اللون البرونزي أم الزيتي أم

الأحمر؟، تكون متلهّفة لتجهيز نفسها لليلتها الأولى، لربما خطبتهم القصيرة هي من جعلت السعادة رفيق دربهما، وحليف أيامهما، ثم أختار لها شيئًا أحبه لنفسي، كاللون الزيتي مثلا، فما أسعدني بها حين أرى طاقتها متجددة لإعمار عش الزوجية.

أما الخبر الذي جاءتني به جنى، فلم أكن أتوقعه، تطرق الباب بقوة، وتلهث باحثة عني في أرجاء منزلنا، صدمة اعترت وجهها شديد الحمرة، أما خفقات قلبها أصابها الذهول.

- ما بك يا جنى!

- لجين، انه حسن

- ما به حسن! هل حدث له مكروه!

- إنه في منزلنا، طلب يدي للزواج

لم أكن أعلم حينها ماذا عليّ أن أفعل، هل أبارك لها تحقيق حلمها برفقة شاعرها المخلّد؟، أم أظهر لها خوفي الشديد لإقبالها على مثل هذه الخطوة، لا أريد لها مشقّة ولا تعب ولا تسرّع في الاختيار، ما كان عليّ إلا أن أحتضن روحها، وأخفي ملامحي بين جدران ذراعي التي تلفّها بحرقة الأم، وسعادة الأخت، وتعاسة المنكسرين.

- ارتدي أجمل ما لديكِ يا جنى، اليوم يومك يا رفيقة، ارتدي فستانك الزهري، واصنعي من الخجل مساحيقَ للتجميل.

لن أتركها وحدها، هذا يومها الخارج عن المألوف، أعلم أنها سعيدة، وتخفي بين تراتيل الصمت معاجم الكلام، تبادر إلى ذهني سلسلة طويلة من الأفكار التائهة، كيف للقدر أن يجمع بين قلبين، يسعد أحدهم ويتعس الآخر!، أليس قدر الحب واحد!، أليس الله هو من خلق القلوب وزرع فيها بذرة الانجذاب !، خفت أن أجحد بقضاء الله وقدره، وهو الذي إن كان شرّا في ناظري، أبطن الله لي فيه كل خير.

رأيت بجنى ما رأيته بإليليا تماما، وكأن مشاعر الارتباط واحدة، سبحان من جعل في الأرواح جنودًا مجنّدة تتآلف دون اختلاف، اسأل الله لكِ قلبا خاليًا من التصدعات يا رفيقتي.

تمر الأيام خلسة، بوجه مهرّج كاذب، ما إن خلع بزّته الضاحكة، حتى ينقلب وجهه إلى عزاء، هاتفي أصبح خارجًا عن كل التوقعات، لا أحمل في داخلي أي فكرةٍ متى سيتحرك أو يقف عاجزًا عن الاهتزاز.

سأقرأ في مذكرات وسيم هذه الليلة، أحتاج إلى رسالة ربانية أخرى، تقتلع الشك من جذور أوهامي.

الرابع والعشرون من آذار:

«صباح ربيعي بامتياز، صباح شهر الأم والأرض، صباح ياسمينتي الموجود فيكِ والمحروم منكِ، صباحي تائه متعطش منزوٍ وحيد».

لم تضفي هذه المقتطفة الصغيرة شيء سوى شعور بالخذلان

أكثر، ومع صوت الكتاب يعانق أوراقه، رن هاتفي، إنه هو:

- كيف أنتِ يا لجين؟
- بخير، وأنت؟
- لدي خبر رائع
- ما هو؟
- غدًا سأحمل أمتعتي وأعود إلى فلسطين.
- أتمنى لكَ عودة سالمة، أنا بالانتظار.

الغريب في الأمر، أنني كنت متوقفة الشعور حينها، لم يتحرك ركن من أركان جوارحي، بل غفوت حتى الصباح، ووضعت منبه الساعة على وقت عودته.

- صباح الخير يا أمي، اليوم سيحط وسيم قدمه في بلادنا
- الحمد لله على سلامته، سأجهز له أكلته المفضلة

هكذا هي أمي دائما، لا يفلت الضيف من بين يديها إلا وهي مستنزفة كل راحتها لأجله، تحضر له أطيب أنواع الطعام، وتعمل جاهدةً على إرضاء ذائقته بشتى الأصناف، يكون نفس الأم في أصاغر الأشياء، ككأس من عصير الليمون الممتزج بالنعناع مثلًا، أو أرغفة من «المسخن» المعبق برائحة التراث القديم، لا تكتفي أمي بإحضار الخبز من الطرقات، بل تغمس الطحين بأناملها لتحيي الطابون من

جديد.

- ما بكِ يا ابنتي ألم تفرحي لخبر قدوم وسيم؟

- من قال ذلك يا أمي، بل إني أشتاقه بلهفة.

الكذبة البيضاء، هي سيدة المواقف الآن، والمجاملة أصدق من الحقيقة، سأبدأ بتطهير نفسي من كل المشاعر الغائمة، سأستقبله والفرح يتوجني، وكأن شيئا لم يكن.

لم أهتم بتفاصيل مظهري، ولا حتى اختيار ملابسي بدقة، لن أضع شيئًا من مساحيق التجميل أو حتى عطره المفضل، سأكون تلك الفتاة الطبيعة، التي لا تملك من جمالها سوى قلبها الذي لم يتغير.

تمتمات تجول في المنزل، وأشعر به قريبًا جدًا، لم يخب إحساسي يومًا بمن حولي، صوت مشيته لا أغفل عنها أبدًا، ها هو يطرق الباب، وصوته ملأ المكان.

- أين لجين يا عمي؟

- هي في الأعلى، ستنزل الآن.

أخذت نفَسي وأخرجت توتري بتسارع، شعرت بقربه وبُعده وكأنه اللقاء الأول بيننا.

بالرغم من إنه أمامي الآن، إلا أن حاجزًا قاهرًا حال بيننا، وبين نظراته المتلهفة لعناقي، ابتعدت، واكتفيتُ بابتسامة وسلام ونظرة

عابرة.

- اقتربي يا لجين، ما بكِ خائفة.

- لست خائفة يا وسيم، فلنجلس، حدثني عن تفاصيل سفرك

وهو يتحدث عدت إلى الوراء سنتين، حين كان كالطفل الذي يحدث أمه عن أيامه الأولى في مدرسته، تفاصيل دقيقة لم يغفل عنها، كموعد نومه، واستيقاظه.

تجنبت أي سؤال عن تغير حاله، اكتفيت بالاستماع، وكلي آذانٌ صاغية دون حديث.

شعرت للحظة أن سعادته كانت مكوّمة عند آخر يوم له في بريطانيا، ولو سمحت له الفرصة لبقائه هناك لما أخذ وقتًا في التفكير.

الغداء جاهز، وعائلتي يعتريها الهدوء، أما صوت الملاعق وترانيم الصحون هي السيمفونية الصامتة في حضرة النظرات المغيبة.

والدايّ ينظران إليّ بشكل متقطع، يحاولان جاهدان التماس مشاعري في هذه اللحظة، أما وسيم، فاكتفى بالنظر إلى طبقه، دون تغيير اتجاه نظره.

ومثل كل مرة، يقطع أبي الصمت المطبق بسؤال عابر يفتح

المجال لآلاف الأحاديث المنمقة.

- كيف كانت رحلتك يا وسيم؟

- الحمد لله

كان وسيم يختزل الإجابات، وهذا الأمر أثار غضب والدي جدا، لم أغفل يوما عن مشاعر والدي المتشاحنة، التي تظهر عند أول نقاش حاد، يرتفع صوته، وتحتد تعابير وجهه.

المرأة المحنكة تظهر في المواقف الحقيقية، وأمي كانت تلحظ الاختلاطات المتمازجة على طاولة السفرة، أطلقت سؤالها مع ضحكة هادئة لتخفف من حرقة الجو الغائم.

- مبارك يا وسيم حصولك على درجة الدكتوراه

توقف وسيم عن الأكل، وبدا توتره واضحًا جدًا، لا يخفى عني وسيم في مثل هذه الحالة، لم يأتِ السؤال متفقا مع ما يريد، أخذ رشفة ماء واكتفى بهز رأسه شكرًا لوالدتي.

ملامح وجهه أثارت فضول أبي، والتقت أعيننا بنفس اللحظة، فلا أحد يفهم والدي كما افهمه.

- هل أنهيت رسالة الدكتوراه كما يجب؟

- المدللة

لم يتحمل والدي كل هذا البرود، استأذن عن الطعام، وجلس في

غرفة المعيشة طالبًا فنجانًا من القهوة، أنهى وسيم طعامه، وكالعادة، تحرك من مكانه، دون أي تعبير عن شكر أو حتى مجاملة لطيفة، حتى أنه لم يتذكر أن يبارك لأخي بخطوبته، تفاصيل صغيرة ربما لا تأخذ حيزا في القلب، أما نحن، فنقدس الاحترام وأبسط الأمور يعتبر أهمها.

لم يتغير الأمر أبدا، بقي الصمت مسيطرا على المكان وبدى الوضع مزعج أكثر.

- تفضل القهوة يا وسيم
- شكرا لك يا لجين

لم أتوقع أن تكون زيارته الأولى مملة إلى هذا الحد، شعر أبي به جالسًا على قلبه، تركنا لوحدنا وغاب عن المكان، عدّل وسيم من جلسته، وبدأت علامات الراحة تظهر على وجهه، انتابني شعور سيء، وكأن عائلتي كانت تضيق على نفسه طوال الوقت.

كان يدور في رأسي ألف سؤال وسؤال، لكنني لم أرغب بأن أكون ثقيلة الظل، وأعاتبه في يومه الأول، اكتفيت بسؤاله عن مستقبلنا، وما هي مخططاته للزواج.

لم يجب على أي سؤال، اكتفى بمد يده وطلب أن أقترب منه، نفرت منه أكثر، وشعرت باستحقار أكبر، لا يقدم أبسط حقوقي في السعادة، لم يسألني عن حالي منذ أن دخل المنزل، ونسي هالة اليأس

التي عشتها طوال الشهور الأربعة الماضية، تهت في استذكار حزني، وتمنيت لو أنه لم يأتِ، إن كان يظن بأن قلبي كعجينة يشكلها كما يشاء، فقد أساء الظن.

لم يعجب وسيم ابتعادي عنه، واكفهرّ وجهه أكثر، لم أعطِ ذلك أيُ أهميةٍ، فقد علمت سبب تصرفاته الآن، كنت أتمنى منه اعتذارًا أو شعورًا بالحب الصادق، رغبت بنقاءٍ لم أجده، الفتاة لا تشعر بالأمان إلا مع من يجعل صدره وسادةً لأحزانها لا أن يكون سببها.

رسالة طرقت أبواب هاتف وسيم، جعلته ينتفض فجأة دون سابق إنذار، نظر إلى هاتفه بلهفة، فكرتُ حينها، لماذا لم يكن بحيويته هذه عند إرسال رسائلي له، غمرني الشك، ولم أستطع إخفاء ملامحي، تمالك وسيم نفسه وأبدى إهماله لهاتفه، لكن عينيك يا وسيم، لم تقنعاني بأنها رسالةً بريئةً.

- ألم تسمع صوت هاتفك؟
- سمعته يا لجين، ولا أظنه شيئًا مهمًا

وتدارك موقفه بأن رسم ابتسامة مرة أخرى، على وجهه، وقدم لي هديته التي أحضرها معه من بريطانيا، لم أكن أتوقع أن جرأته ستجعله يحضر لي زجاجة الجادور الممزوجة بالياسمين، شعرت بإهانة وكأنه يريد من ياسمين الالتصاق بجلدي وكل تفاصيلي، لم يكن هذا اليوم بحساب أيامي، تصرفاته خانقة، أخذت زجاجة العطر

ولـم أشعره بمأساة مشاعري، اكتفيت بشكره، عاد وسيم إلى منزله، وزادت حيرتي، ظننت بأن قدومه سيجدد أحاسيسي اتجاهه، لكن حدث العكس.

لم أكن جاهزةً للدخول بأي نقاش مع والديّ، ذهبت إلى غرفتي، واستلقيت على سريري، أما خاتمي فمصيره ما زال مجهولًا.

تتسارع الأيام، وتتسع الفجوات، ويبقى القدر يرسم قراراته على طريق المستقبل، دون أن نعلم كيف ولماذا وأين سترسو السفينة وسط هذه العاصفة الهوجاء.

اليوم هو يوم زفاف أخي، تجهيزات الفرحِ، فرحةٌ بحد ذاتها، فستان إليليا كان أشبه بزهرة توليبٍ بيضاء، أما أنا فاخترت فستانًا لوزيًا متمازجًا يقتسم بين الأخضرين تدريجًا، ضحكتُ من القلب، واختزلت كل سعادتي لهذا اللحظة، سينام أخي في جدران غير جدران غرفته، سنشتاق إليه.

اكتسح التعب أجسادنا، غرقنا في نومٍ عميقٍ، لم نستيقظ على صوت بائع الكعك صباحًا، ولا على أطفالٍ الحي وهم يلعبون لعبتهم الأخيرة قبل دوامهم المدرسي، هذه أول مرة نجلس فيها على طاولة الفطور دون فرد منا، لكن البهجة ملأت ذلك الكرسي حتى فاض، سنة الحياة التي تعلمنا أن نؤمن بها، من يعلم، لربما يذهب واحدٌ ليعود مكانه اثنين، وأصبح عمّة لأطفاله.

دخل والدي على غرفتي، وكأنه يمتلك حفنة من الأخبار السارة.

- لجين، كلّمي وسيم وادعيه إلى المنزل، أريده بموضوعٍ مهم

- ما هو يا والدي؟

- ستعلمين حين يأتي

لا أعلم ماذا يريد والدي من وسيم، ولم أضع أي خيارات لذلك، لأن أخبار والدي دائما تفوق الاحتمالات، ها قد وصل وسيم وسأرضي فضولي الآن بالمعرفة.

- كيف حالك يا عمي، أخبرتني لجين بأنك تريدني، ماذا هناك؟

- اجلس يا وسيم، لدي خبر رائع لك

- تفضل يا عمي

- لقد أعلنت الجامعة عن وجود شواغر للعمل فيها بمرتب ممتاز جدًا، وجميع الشروط تنطبق عليك بما فيها شهادة الدكتوراه في الاقتصاد كمتطلبٍ أساسيٍ، لا أظن أن هناك فرصة أجمل من هذه لتبدأ مسيرة حياتك مع ابنتي كما تتمنيان.

وسيم لم يعمل إلى الآن، ولا يمتلك منزلا نرتكز عليه لبدء التخطيط بجدية، كانت شهادة الدكتوراه سبب خطبتنا الطويلة، لأن الأحلام مكومة عليها، خبر والدي ملأ قلبي فرحا، لربما انشغال وسيم بالعمل سيولّد طاقة جديدة من التغيير والشعور بالمسؤولية.

اختنق وجه وسيم، ولم يعد قادرًا على الكلام، يجول بنظراته بيني وبين والدي ويستقر بها على الأرض، دون إجابة بالقبول أو الرفض.

- ما رأيك بكلام والدي يا وسيم؟ أظنها فرصةً لا تعوض.

وسيم يتلعثم بالكلمات ويحاول ترتيبها بصعوبة، ليطلق الخبر الصادم الذي أخفاه عني ولم أتوقعه أبدًا.

- لكن.. عمي..
- لكن ماذا يا وسيم؟
- أنا لم أنجز رسالة الدكتوراه ولم أنهِ دراستي

لم أتفوه بحرفٍ واحدٍ، وسيم من المتفوقين في العلم، ماذا حدث ليعود خالي الوفاض بعد كل هذه المدة!

نظر إليه والدي باستغراب قاتل..

- كيف ذلك يا وسيم؟ ماذا حدث معك؟
- لم أستطع إنهاءها في الوقت المحدد
- ألم يمددوا لك فترة إنجازها؟
- بلى، ولكنّي فضّلت العودة إلى وطني، لم أكن لأنجزها حتى مع التمديد.

خاب ظني وظن والدي بوسيم جدا، وتهاوت الأحلام من أعلى أبراج التوقعات، كان أبي معتمد على شهادته لتحسين وضعنا وبناء حياة

كريمة، مرت فترة طويلة من أيامنا ونحن ننتظر تخرجه بنجاح، لم أصدق عذر وسيم، أنا متأكدة بأن تحولاته المفاجئة لها علاقة بفشله، انشغالاته لم تعطه وقتا كافيا لإنجاز مهمته، لكن بماذا انشغل وسيم يا ترى!

أحتاج إلى تجديد الهواء معه لنتحدث كثيرا عن كل شيء، سأختار المنتزه، حيث الهدوء المطلق.

- وسيم، أنت تعلم أن الفترة الماضية كانت قاسية على كلينا، ما سبب برودك المميت هذا!

- لا شيء يا لجين، لا تسأليني هذا السؤال ثانية

كنت أظن أن خروجنا سيجعلنا نعيد فهم بعضنا بعد كل هذا التيه، لكن جبينه المقطّب وعناده أرغماني على الصمت.

هاتف وسيم يرن، وتوتره الذي حصل أول مرة ما زال يتكرر..

- أجب على هاتفك يا وسيم.

- لا.. لا بأس يا عزيزتي، دعينا نتمشى قليلا

هناك شيء يخفيه وسيم عني ما زلت أجهله، هاتفه بئرَ أسرارٍ عميقٍ، لم أعتد أن أتدخل في خصوصيات كهذه، لكن تصرفاته المريبة تثير ريبتي.

لم نتفق على شيء، ولم أستفد من خروجنا أبدا، لكني أكيدة بأن أحدنا سيرضخ للآخر، من سيكون؟، لا أعلم.

منذ أن عقدت جنى قرانها على حسن، لم أعد أراها كثيرًا، باتت مغيبة عن كل من حولها، أصبحت أفتقدها فعلًا.

سأتصل بها علّنا نجد مكانا نجدد فيه حيويتنا الخاملة..

- جنى، كيف أنتِ؟
- أنا بخير يا لجين، أشتاقكِ.
- وأنا أيضا، دعينا نخرج اليوم.
- إلى أين؟
- إلى تلك البقعة التي تكشف نابلس من الأعلى.

جبلا عيبال وجرزيم، يحتضنا المدينة، وروح نابلس المتناثرة بين الغيوم الشاهقة، تكشف كل شبر في شوارعها، أرى الناس من أعلى قصار القامة، عظماء الهامة، وعشرات التفاصيل المخلّدة بين طيّات تربتها.

- لجين، ما حال قلبك؟
- قلبي فارغ الحجرات يا صديقتي، ولو أطلقت صوتكِ فيه، لسمعت صداه.
- ووسيم؟
- وسيم يقطن في حجرة من حجراته الفارغة.

جنى، أخبريني أنتِ، هل ما زال حسن يمتلك تلك اللوحة الجنونية المبعثرة؟

عينا جنى تائهتين في الفراغ، حدقتها السوداء تتسع وتنكمش كأنها تحدثني بلغة الحواس.

- نعم، نعم يا لجين، ما زال كذلك.

تلك الفتاة تخفي عني سرّ وجعها، تظنني غبية لا أشعر بها، نحن النساء نعلم بأن الرجال يعيشون حالة الحب في قوقعة الفضاء، أما الخاتم يصنع منهم رجال آخرين وكأنهم يضمنون بقائنا مهما اتسعت أوجه الشقاء.

لم نتكلم كثيرا، بقينا ساعات بين أروقة السماء، تغيب ملامحنا عند أول طائر يمر من أمامنا ليكسر ثبات أعيننا عن الحراك، روتين الحياة القاتل، يخلق من كل الساعات تشابهات تبدأ عند عقرب دقائقٍ واحدٍ ويعود إليه نفسه، موشحات متكررة كل يوم في منزلي عن مستقبلي المتغبش، ولا أجد ردًا عليها، أنسحب كعادتي إلى غرفتي دون الالتفات إلى أحد.

ومن رحم انغماسي في التفكير، وصلتني رسالة من وسيم،» سأصل بعد قليل يا عزيزتي، لن أتأخر».

لم نتواعد أنا ووسيم على لقاءٍ الآن، لقد رأيته اليوم، أظنه أخطأ في العنوان، لكن كيف ذلك والرسالة مؤنثة المعالم!

ما لبث وسيم حتى أرسل رسالةً أخرى اعتذر فيها بأنها ليست لي، وأنه مواعد لصديقه، وتفاصيل الحروف اعتراها خطأ إملائي،

أما أحبك التي اختتم بها تبريره جعلتني أكذبه أكثر، مرت فترة طويلة لم أسمع فيها هذه الكلمة، يا لسذاجتي وغبائي كيف صدقته؟، لكن الخيانة أظنها بعيدة كل البعد عن وسيم، لا أعتقد ذلك، لربما هو صادق فعلا، أتوقع منه كل شيء عدا الخيانة، لا أظنه ارتشفها أيضا.

مكالماته المتتالية بعد رسالته الأخيرة أثارت حيرتي، مشاعره الفيّاضة فجأة أشعرتني بأنه يريد إخفاء فعلةٍ ما بكلامه المنمق، كان هنالك صوتٌ في داخلي يرجوه بأن لا يخون كي لا تكون النهاية.

في الليلة التالية، كانت دعوة وسيم لي على العشاء لفتة نسيتها منذ فترة طويلة، تقابلت أعيننا مرة أخرى على صوت موسيقى بيتهوفن، طيبته الزائدة جعلتني تائهة بين صحوته لمستقبلنا واعتذاره عن رسالته السابقة، لم أكن أفهم شيئا سوى أن روحي أعيد نبضها من جديد.

- حبيبتي، أستأذن منكِ قليلًا، سأذهب إلى دورة المياه

- لا بأس، لك ذلك

نسي وسيم هاتفه على الطاولة، كنت أشعر بحاجتي لشيء يقطع الشك باليقين، حتى أُبرؤه في ذهني، تسللت أصابعي لهاتفه بسرعة، يداي ترتجفان، وقلبي ينبض ألف نبضة في الدقيقة، مكالمات كثيرة تغزو صفحته الرئيسية، لكن أحدها تكرر كثيرًا، نسخت الرقم على هاتفي، وأعدت جهازه إلى مكانه في الوقت المناسب.

عاد وسيم، حاملًا معه ابتسامةً مليئةً بالحب والاشتياق، قابلته بنفس النظرات، أما عقلي كان مغيبًا عن المكان.

حين عدت إلى منزلي، كنت مختلطة المشاعر، لا أحمل أيّ شيء واضح في رأسي، نظرت إلى الرقم في هاتفي كثيرًا، كنت خائفة من التورط في قصة مع وسيم لا أخرج منها، وإن كان بريئًا من شكوكي، كيف سيسامحني.!

بقي وسيم فترة طويلة بلسمًا يداوي التعبَ، وبعد كل معاملة لطيفة منه، أغض طرفي عن الرقم المجهول، مرت أيام طويلة على هذا الحال، وسيم تغير فعلا، لا أعلم أن كان هذا لصالحي أم لا، لكن اهتمامه المبالغ في نفسه وشياكته الدائمة، وابتسامته التي لا تفارقه، أثارت سعادتي ومفاجأتي في الوقت ذاته، لم أخفِ عن جنى ما حدث معي، وبّختني على فعلتي، أنبتني لإمساك هاتفه دون علمه، لكن الرقم شغل رأسها كثيرًا.

- لجين، عليكِ أن تعرفي صاحب الرقم، لا أظن أن تغيرات وسيم طبيعية

- لكن كيف سأتصل، أخاف أن اظلمه يا جنى وأخسره بعد تحولاته الجميلة هذه

سحبت جنى هاتفي، واتصلت على الرقم من هاتفها، ومع كل رنة، كنت أدعو الله أن يكون صاحب الرقم رجلا.

- الو.. الو.. من المتكلم؟

صوتها أنثوي ناعم، مليء بالدفء والمحبة والقوة، أغلقت جنى الهاتف ولم تصدر أي صوت، أما الصدمة فقد كانت أكبر من أي وصف ممكن، لم أعلم من تكون تلك الفتاة، إلا أن أمرها بات غريبًا جدًا، أخفيت ملامحي عن وسيم تماما، ولم أظهر له شيئا، أما الرقم فقد حفظته في هاتفي لأستخدمه لاحقًا.

شعرت بضعف كبير استوطن وجداني، كيف لهذا الرجل أن يخون وأنا التي لم أخطئ بحقه يومًا، كيف له أن يجرح أُنثى كانت تظنه وطنًا وأسكنها في غربةٍ نائيةٍ، شعرت بأن شرخًا شطر قلبي، كيف لك أن تخون يا وسيم، من هي تلك الفتاة، ابتعدت عن ناظره فترة طويلة لأفكر في حل لمشكلتي، لم يمنعني خوفي من حقي في معرفة هويتها، كنت كلما أمسكت بهاتفي أحس برجفة في كياني، أطالع أرقامها بتردد، أما الآن، فلن أتراجع.

بصوت مختنق:

- مرحبا
- أهلًا بكِ
- هل لي أن أعرف من صاحبة هذه الرقم؟
- أنتِ من اتصلتِ يا عزيزتي، عرفيني بنفسك أولا

- أنا لجين

- وأنا ياسمين

- ياسمين!

- نعم، هل تعرفينني؟

كانت صدمةً قاصمةً لظهري فعلًا، ولأول مرة أشعر فيها بالانكسار والإهانة إلى هذا الحد.

- الو.. لجين.. هل أنتِ معي؟

- نعم.. نعم معكِ.. أنا أعرفك جيدًا

أريد أن أراكِ يا ياسمين، هل أنتِ في فلسطين؟

- نعم، وتحديدًا في نابلس، لكن من أنتِ؟

- حين ألتقي بكِ سأخبرك، أراك بعد ساعتين عند مطعم الزهور.

- كيف ذلك! انتظري من أنتِ!

- سأخبرك بكل شيء عندما أراكِ

لم أخبر أحدًا بأنني ذاهبة لرؤية ياسمين، كنت متوترة جدًا من هذا اللقاء، كيف لا وأنا التي أعتبرها عدوّتي الأولى من أحاديث مذكرات وسيم القديمة، شعرت بأن رحيقها يمسكني من عنقي.

رتبّت أموري جيدًا، وذهبت إلى ذاك المطعم، جلست في مكان قريب من النافذة حتى يتوه نظري بالمارة، رأيت فتاةً جميلةً تمشي باتجاهي، وكأنها مترددةً في وجهتها، أشرت إليها ولم يخب ظني بأنها هي، لم أتوقع أن تكون مريحةً إلى هذا الحد، وجهها البشوش، وعيناها اللامعتان، وابتسامتها الأخاذة، أدخلاها إلى قلبي دون استئذان، لكن غيرة النساء هنا واجبة.

- ياسمين؟
- نعم ياسمين، كيف أنتِ يا لجين؟
- أنا بخير، تفضلي بالجلوس

لم أعلم كيف سأبدأ حديثي معها، إن الرقيّ والهدوء سيدا الموقف في مثل هذه الحالة.

- متى عدتِ من دبي يا ياسمين؟
- دبي؟ لم أخرج من فلسطين أبدا يا لجين.

لكن لم تقولي لي، من أنتِ؟

- أنا خطيبة وسيم
- وسيم؟
- نعم وسيم، أنا أعلم أنكِ عشقه الأول يا ياسمين، لماذا عدتِ؟

وجه ياسمين اتشح بالذهول، عيناها المحدقتان أشعرتاني بأنها ضحيةٌ مثلي تمامًا، كسى الصمت أرجاء المكان، وكأن الصدمة تشربت في جسدها.

- أنا لم أكن أعلم بأن وسيم مرتبط يا لجين

- لكنكِ متزوجة، فكيف تقعين في حب رجل آخر!

- من قال بأنني متزوجة، أنا لم أرتبط يوما، وسيم هو حب الماضي والحاضر ووعد المستقبل، منذ أكثر من ثلاث سنوات، تقدم وسيم إلى خطبتي بعد حب دام لسنوات، لكن والدي رفضه لأن ظروفه لم تكن تؤهله للارتباط، انقطعت أخباره عني فترة طويلة، وشاء القدر أن توفي والدي في حادث سير مؤسف، و تفاجأت باتصال وسيم لتقديم واجب العزاء، أخبرني حينها بأنه في بريطانيا لدراسة الدكتوراه واقترب موعد عودته من هناك، لم يهدأ هاتفي منذ تلك اللحظة من اتصالات وسيم، ولكنه لم يخبرني أبدا بأنه عقد قرانه على أي فتاة، وإلى الآن هو رفيق أيامي، ولم ألحظ بأنه يرتدي خاتمًا في إصبعه.

كانت كلماتها كخنجر ينخر في صدري، قد أسامح وأغفر أي ذنب عدا الخيانة، إنه فايروس قاتل لكل اللحظات الجميلة.

- أنا لست سيئة يا لجين.

صدقت كل حرف قالته، حملت حقيبتي وعدت إلى منزلي والصدمة تأكل من ملامح وجهي، لم أستطع التفوه بأي حرف، اكتفيت بجلد ذاتي ولعن طيبتي التي أوصلتني إلى هنا.

خمس مكالمات فائتة من وسيم، لن أحتمل سماع صوته، دخلت بحالة نفسية سيئة أقرب للاكتئاب، لم أعد أجالس أحدًا، أو أستقبل أحدًا، حتى أن أمي كانت تنام عندي كل ليلة تملس فيها على شعري دون أن تعلم ماذا يحصل، تبللت وسادتي بالدموع، واختنقت روحي بالخيانة.

ستة مكالمات فائتة من ياسمين..

- لجين، كيف حالكِ؟

- لا بأس به، وأنتِ؟

- أنا بخير

ارتدي ملابسكِ فورا، وتعالي إلى نفس المطعم الذي التقينا به.

- لماذا؟

- ستعلمين عند مجيئك

ملابسي كأنها تنتزع نفسها من خزانتي وتلبسني، أرى نفسي في المرآة انعكاسا ميّتا لا يتحرك، الكحلة السوداء تمشي على عيني رويّا لتخط شارعًا متعرجًا غير مبالٍ، أما شفتاي فكانتا جافتان عن كل شيء، حتى الكلام، كنت مغيبة عن صوت أمي التي نادتني عشرات المرات، صوت بائع الكعك هذه المرة مزعج، أرجوك أصمت!

وصلت إلى مطعم الزهور حيث لقائي الأول مع ياسمين، إنها هناك، وظهْر رجلٍ غامضٍ يجلس أمامها، باتت عيناها تلتفتان يمينًا ويسارًا باحثةً

عني، كانت أشبه بطفلة تائهة عن أمها، التوتر واضح على وجهها، وصاحب ذاك الظهر المشدود يقهقه بأعلى صوته، اقتربت، واقتربت رائحة وسيم، وباتت تخترق أنفي، حتى وصلت، ووصلت نهايته معي، سميّت بالله ونظرت إلى عينيه الخائنتين وابتسمت بغصة من قلبي المشتعل نارًا.

صُعق وسيم، أصبحت معالم وجهه مخفية عن الوجود، يداري نظراته في الأرض، وينظر تلك النظرة الحاقدة على ياسمين، يوبخّها دون حروف، اكتست الطاولة الصمت، خمس دقائق من الاشمئزاز اعترت المكان، لم أنتظر أي تبرير منه، فبؤرتا عينيه تتسعان وتنكمشان كذبًا.

لم أفكر حينها بعقلي، بل خلعت خاتمي الذي طال عصره لإصبعي وألقيت به في وعاء أكله المسموم ورحلت.

غادرت، وسمعت صوته خلفي يشتم الضحية الثانية من ضحاياه، ياسمين التي لم تكف عن الصراخ في وجهه، صوتهما ملأ كل كأس في المكان، لم أرجع إلى الوراء خطوة، تجاهلت وعدت إلى بيتي تاركة ورائي خاتمي وعقلي ورائحة الجادور.

أقسمت ألَّا أبكي، تمالكت روحي ومياه عيني، وأقفلت عليّ باب غرفتي، وانتزعت ملابسي وشوارع الكحل على وجهي، ونمت دون أدنى انفعال، سبعٌ وستون مكالمة فائتة، وثمانٍ وأربعون رسالة نصية، والحصيلة بازدياد، الرقم ذكرني بالنكسة والنكبة، يا لنكستك ونكبتك يا رجل! حتى تفاصيلك الصغيرة معقدة!

صوت ضحكات والديّ في غرفة الجلوس تترنم على مسامعي، ابتسمت بشكل لا إرادي، وجودهم كنقشٍ على جدران معبدٍ صلواتيّ.

خرجت من غرفتي، رغبة مني بإعادة تهيئة نفسيتي بعد هذا اليوم المريب، نظرات أبي وابتسامته تتجه نحوي، ثم نحو التلفاز ثانية، ولأنه في هذا الوقت يفضل احتساء كوب القهوة، بادرت بصنع القهوة الخالية من السكر دون أن يطلب، وسكبتها في فنجانه الأبيض المنقوش بالجوري الذي يحبه، أما أمي، فالشاي بالنعناع يعمل مفعول المُسكِر معها في أوقات العسيرة وحبذا لو كان مع كعك محفور بالهال.

ها هما يشربان خمرتهما الشرعية، وعيناهما تتلاقيان وتنظران إليّ باستغراب.

صوت التلفاز انخفض فجأة، وتعالى صوت أمي فوق رشفات أبي، وداهمتني بذاك السؤال غير المتوقع:

- أين خاتمك يا لجين؟

ترددت حينها بإخبارهم ذاك الخبر المفاجئ، وكيف أقطع عليهم نشوة السعادة بتعاستي!، لكنني لن أقوى على اختراع كذبة الآن، فالموقف أقسى من أن أكذب وأدور حول الحقيقة.

- لقد انتهينا يا أمي.

عدّل أبي من جلسته، ووضع قدم فوق قدم وأزاح رأسه باستغراب

- ماذا يا لجين !، ماذا حصل؟

نظرات أمي الغاضبة ظهرت من رحم وجهها الضحوك، ولأنها دائما ما تراني تلك الفتاة الطائشة صاحبة القرارات المتسرعة والعشوائية، طلبتْ حضور وسيم، لمناقشة الأمر بجلسة رباعية للبحث عن خفايا هذه القصة المفاجئة.

هاتف والدي وسيم، وطلب منه الحضور، وما كان عليه إلا الرضوخ لطلب والدي مجبرًا لا طائعًا.

وجهه شاحب كما لو أن عزيزًا له فارق الحياة، ملابسه مغبرّة غير مرتبه، لم آبه بهذا أبدا، لأن سلاحه دائما حاضر، «لسانه المعسول» يخرجه من أكبر كارثة يوقع نفسه بها، باعتذار ووردة ياسمين وعناق ينتهي كل شيء، جاء في مخيلتي عبارة نزار قباني «الأنثى لا تريد رجلًا ثريًا، ولا وسيمًا، ولا حتى شاعرًا، هي تريد رجلًا يفهم عينيها إذا حزنت فيشير بيده إلى صدره ويقول (هنا وطنك)».

لم يعتقد أن هذه المرة سأكون حاسمة في قراري، الفترة التي عشتها من تيه وعيون ناعسة وقلب لا يخفق إلا تعبًا، وضعتْ أمامي شباك يفصل بيني وبين الأمل بوجود حياة مزهرة.

يحمل معه خاتمي ويشد عليه بأطراف أصابعه، يتناقش مع والديّ بعنف وطريقة لا أخلاقية أبدًا، لا يضع حدودًا في التعامل مع من

يكبروه سنًا ووعيًا ومقامًا، يريد الفوز بالجولة بصوته المرتفع وإثبات أنه على حق دون وجه حق.

بدأ الغيظ يتسلل إلى وجه أبي، وهو يرى ذكرًا في عمر ابنه يتطاول عليه، وتفاصيل القصة المشبعة بالخيانة أغاظته أكثر.

أمي تنظر بذهول لأسلوبه القذر الذي ظهر فجأة، أما عنّي، فوجهي يكاد يعتصر الأرض خجلًا من اختياري له زوجًا مستقبليًا لا يحسن التصرف.

الإهانة تجاوزت حدّها، وعباراته الحادة غير المنطقية التي يبرر لها فعلته كانت أشبه بسمٍ يتسلل إلى أحشائي، لم أتحمل أن أرى أبي يُهان ويصمت لأجلي، ويكتم غيظه مرة وأخرى وعاشرة كي لا يكون سببًا في تعقّد الأمر أكثر.

وقفتُ، وصرختُ فيه كي يصمت..

- المحكمة غدًا الساعة العاشرة صباحا.

حمل أمتعته وخرج من المنزل وصفع الباب بقوة.

لم يحاول أن يحادثني، اكتفى بإرسال رسالة حب على هاتفي كما لو أن شيئًا لم يحدث.

البتلة الثانية

اغتسلت منه وتوضأت وصليّت واستخرت ونِمت، وآخر عبارة نطقتها «اختر لي يا الله ولا تخيرني، فالخيرة فيما تختار».

اكتفى الجميع بالصمت بقية اليوم واليوم التالي حتى الساعة العاشرة، استيقظت وأنا بكامل راحتي وإيماني بأن قراري في مكانه، شعرت وكأن بلسمًا عذبًا يطيّب جرح قلبي ويحثني على المتابعة، أمي تجهّز نفسها، ووالدي عاد من عمله مبكرًا، تمتمات خافتة تمر على مسمعي، وحين يرون ظلّي يصمتون، حملت حقيبتي واضعة فيها كتابًا أهداني

إياه وسيم يومًا بعنوان «أسعد امرأة في العالم» لأعيده إليه وأنا بكامل سعادتي فعلًا.

الطريق طويلة، صمت اعترى الأفواه، ونظرات تبتعد عنّي خوفا عليّ من نفسي.!

على عتبات المحكمة الشرعية، بناء شاهق، ميزانين ودستور،

أقف على الباب التفت يمينًا ويسارًا، لأجد امرأة ذات رداء أسود تحتضن ابنتها بشدّة والعجز شاخ على وجهها العبوس، ولأن المدة

القانونية انتهت لحضانتها، كان قانون الأبوة أقوى، وسحبها من بين يديها والابنة بين اختيار واحتضار!، أما تلك العجوز الكهلة فقد حُرمت من حقها في ميراث يقسم بينها وبين إخوتها الذكور، هذا يريد منزلا، وذاك يريد أرضا، وهي بينهما ضاعت أسنانها عمرًا.

في المحكمة الشرعية رأيت طفلة تحمل طفلة على ذراعيها لتحظى بلقب الأمومة وفي عينيها دميتها التي لم تكبر يوما، في المحكمة ذاك تزوّج من أربعة، وتلك ماتت عذريتها قسرًا، وهذه تزحف بطنها وتحمل خمسة على يدها ووجها مزرقّ وشعرها أشعث، صراخ وعويل وفتك لحرمة نصف المجتمع، المرأة التي طالما جُنّت معالمها وتقلّبت بين وقمع وضرب وانتهاك.

الساعة الآن العاشرة والنصف، وأنا بين تلك المشاهد المزرية أضعت نفسي، أتى وسيم وهو يجرُّ قدميه مرغمًا، يتقدم خطوة ويعود ألفًا، القاضي يستمع لأحاديثنا الصاخبة، لم يقبل وسيم التسريح بإحسان، بل

أرغمني على خُلعه وإخراجه من تفاصيلي كما تُنتزع الشوكة من الجلد، لأكون تلك الفتاة المختلفة التي تمرّدت على ذاتها وأبعدت عنها تعاستها بورقة التنازل عن الحزن طيلة الحياة.

أعدت إليه كتابه وممتلكاته دون أن انظر إليه، عدت إلى بيتي وشعور غريب يعتريني، حياة جديدة وعالم آخر، أصبعي لم يعد

مغزولا باسم أحد، لم يعد هناك من يعكّر عليّ صفوة نهاري، ولا أحد يمنعني من أن ارسم مستقبلي كما أشاء بقلب طفلة وجسد امرأة وحكمة عجوز.

لن أسلم من أحاديث العباد المتفرقة، هويتي التي دسَّ فيها لقب «مطلقة»، المجتمع الشرقي الذي يلوم الفتاة مهما كان ذنب الرجل، لم يكونوا معي حين مُنعت من تطوير نفسي، ولم يكونوا معي حين سهرت الليالي أجلد ذاتي على خياري الأبله، لم يكونوا أيضا حين ذهبت للمشفى لأعالج جسدي المنهك منه، كنت وحدي عندما أُهنت وأُهملت وكُذب عليّ وأنا أداري حزني بين صلاة ودعاء.

هل كانوا هنا حين تعبّقت ملابسي برائحة الجادور المعتّقة بالياسمين!، لم أسمع سوى صوت الله في قلبي واكتفيت.

سمعت جنى خبر محكمتي، جاءت تهرول لتحتضنني وتكفكف دمعي ظنّا منها أني أموت قهرا!

- كيف أنتِ يا لجين؟

- لا أظنني كنت يوما أفضل من هذا الحال يا جنى، صدقيني لم أكرهه يوما، لكن الأرواح يخلق الله لها أشباهها، قد يفوقني بالأفضلية، وقد يكون العكس، لا أتمنى له سوى خير الأيام والنصيب والقدر.

- حدثيني! حدثيني عن التفاصيل!

- التفاصيل دعيها تداعبك أنت يا عزيزتي وأخبريني، كيف حال حسن!

أحمرَّ وجهها، وباتت أسنانها اللؤلؤية تظهر من بين شفتيها، أخرجت هاتفها لتريني صورة فستان زفافها الأبيض وباقة من زهر الزنبق المشع.

- أسبوع فقط يا لجين تفصلني عن الحياة الأزلية معه.

أيام وستدخل جنى قفص الزوجية، لم أتخيل أن هذه الصغيرة ستبدأ بتحمّل مسؤولية بيت وأطفال وحياة متكاملة، ستكون ملكة على عرش الجمال.

اليوم سيكون مختلفًا، سأقدم لإكمال الدراسة في الخارج، الماجستير في القانون الشرعي هو هدف لطالما حلمت تحقيقه، معدلي الجامعي يؤهلني لأي تخصص أريده، وبدأت بإرسال رسائل عبر البريد الإلكتروني، علّ وعسى تصيب هذه المرة.

بدأ المنزل يهدأ رويدًا رويدًا، التوترات الماضية التي كانت تهز الجدران تلاشت، هاتفي بات كصحراء قاحلة من الرنين، تذكرت مواهبي التي دُفنت بتراب القمع.

آلة العود خاصتي، المصنوعة من خشب الزان المتين، أوتاره الهادئة الرقيقة، زخرفاته الموسيقية الأخّاذة، كنت أتقن عليه مقام النهاوند والرست والحجاز، ذات الطابع العذب الذي يناسب

الألحان العاطفية والحزينة والخاشعة، أغمض عيناي، أتوه في ترانيمه، وأستشعر أن كل جزء في ذاكرتي تحرك، أغني بصوتي القريب إلى نفسي، «يا ظريف الطول»، «وين ع رام الله»، «الدلعونا»، فأغزل السيمفونيات التراثية والوطنية.

كنا نجلس على طاولة واحدة مستديرة، هذا مقدسي، وآخر نابلسي، وهناك الخليلي والكرمي والجنيني والحيفاوي والغزاوي، تجمعنا طاولة المقلوبة والكنافة وصحن الفلافل، جمعنا الثوب الفلسطيني والأغاني القديمة وخبز الطابون والزيتون والزعتر، تجمعّنا على العراقة والأصالة، لتضمنا فلسطين في كل شيء لم يستطع الاحتلال اختراق سدّه المنيع المتجذر في تاريخ قديم نهجه لنا آباؤنا وأجدانا، لنتمسك بأبسط الأشياء التي تجمع حروف فلسطين وتحفظها من الانقسام التراثي.

غرفتي مليئة بالأشياء التي تقتحم أبواب الذكريات وتعتريها، صور وسيم، وزجاجة العطر المقفلة منذ حضوره من بريطانيا، تلك الرسائل المعلّقة على أسوار الأيام الماضية، حتى الورود والأحلام، باتت أسيرة الجفاف المقطّر.

وقعت عيني على دفتر مذكراته، هذه آخر مرة سأقرأ ما فيها بعشوائية.

في العاشر من يونيو:

«حين تاه ذلك القلب الحائر في زاوية الحب المجهول على عربته، جاءت سيدة الحلول وهمست في أذنه «انسها »، فهي ليست إلا فتاة لباسها بارد كجسدها الحي في الدم والميّت في المشاعر. انسَ عينيها فهما مجرد نافذة تطل على جانب مقيت من الحياة، هل تستطيع العيش مع ابتسامة باهتة صفراء نائمة؟

هل يا صاحب السعادة سترسم على وجهك ألوان مضحكة كي تظهر أسنانها المختبئة منذ أعوام؟».

صفعتُ الأوراق بعضها، وأحضرتُ صندوقا لأملأ به عثرات الماضي، كومّت الذكريات، ورميت بها في عالم النسيان، وسمعت صوت زجاجة الجادور ترتطم بالقاع وتُكسر، لا أريد شيئا من ماضيك المرير يا وسيم.

ساعات قليلة تفصلنا عن حفل الزفاف المنتظر، هاتفي لم يهدأ أبدا، تريد جنى أن أعطيها دفعات إيجابية تحسّن مزاجها الخائف!، بالرغم من سعادتها، ألا أن التوتر هو حليف هذه اللحظة.

سأختار الفستان النبيذي المرصّع بالذهب، وأضع القليل من مستحضرات التجميل الهادئة، أما شعري سيكون كما تحبه جنى، منسدل على كتفيّ، متعرّجًا في نهاية النهاية.

ملأ الناس المكان، نظراتهم المتفرقة اكتسحت القاعة، ينتظرون أن تطل عليهم تلك البهية من آخر الممر الأحمر.

لم أمسك نفسي من البكاء، هذه أول مرة أذرف دموعي سعادة وفرحا، لم أشعر أنني أرى صديقتي فقط، من هذه!، إنها جورية بيضاء!، حورية من السماء!، إنها ملاك يمشي على الأرض أو سيمفونية نديّة ساحرة!، يا لابتسامتك، عنفوانك، هيبتك، يا لجميل رقصاتك المجنونة، الآن أنا في أكثر لحظاتي ارتياحا، وهي في قمة تألقها.

احتضنتها، وودعتها، وقبلتها قبلتي الأخيرة:

- اسعدي، وأَسعِدي حسن يا جنى.
- سأفعل يا لجين، انتبهي لقلبك.

مشاعري متفاوتة الآن بين حب وحزن وسعادة واشتياق، هل سأجدها كلما احتجت لوجودها كما اعتدنا!، أتمنى لها حياة بجمال عينيها.

يومي مختلف بها، اشعر أنني أحتاج نوم يحتضنني بعد هذا النهار المتعب، اعتدت دائما أن أتفقد هاتفي، وبريدي الإلكتروني، وحسابي الفيسبوكي قبل الرحيل في سبات عميق.

وفي زحمة الرسائل، لفتت نظري إحداهن على بريدي الإلكتروني

"تحية طيبة وبعد،

مرحبا لجين،

هذه الرسالة تؤكد على قبولك للدراسة في الجامعة بتخصص القانون الشرعي، بناء على تقديمك لطلب الالتحاق واستيفائك جميع الشروط السابقة، سيبدأ الدوام في مطلع شهر أكتوبر القادم، نرجو من حضرتك التواجد في الوقت المناسب.

الجامعة الإسلامية – قسنطينة – الجزائر"

من بين عشرات طلبات التقديم التي أرسلتها، كان نصيبي في الجزائر، أكثر البلاد التي أحبها وأتمنى الدراسة فيها، صرخت من سعادتي حتى التمّت العائلة على صوتي الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

- ماذا هناك يا لجين.!

- أبي، أمي، سأكمل بقية حلم دراستي في الجزائر، شهر واحد، وسأكون فوق ثراها أغزل ثوب المحاماة من أقلامها.!

الضحكات تعالت أكثر، بريق وجه أبي وفخره لمست روحي، دقات قلب أمي وصلت إلى مسمعي، يومي هذا يجب أن يدخل التاريخ، الأول من سبتمبر، شهر ميلادي ومولد تحدياتي، سعادتي سعادتين، وفرح الكون يريد قلبا جديدًا ليتسعه.

نمت وابتسامتي لم تفارقني حتى الصباح.

ترتيبات السفر غربة بحد ذاتها، رغم محبتي اللامتناهية للجزائر، إلا أن لفلسطين مكانة غير اعتيادية في حجرات قلبي، استودعت وطني

وتراب نشأتي أول مرة في بريطانيا، وكنت أموت اشتياقا ألف مرة، لكنني تعلمت ألا أتاجر بعاطفتي وأضيع بعقلي، فأكون الضحية.!

لم تترك أمي شيئا إلا ووضعته في الحقيبة، وكأنني سأهاجر بلا عودة! فرّغت لي خزانتي بما فيها، وفي كل قطعة ملابس تضعها، بات الحزن اشّد وقعا على وجهها، وكأنها تغزل حقيبتي بسعادتها، هذه المرة الأولى التي سأغادر فيها حجرها الدافئ، أشعر بها، وأُقدّس خوفها، لكن كما يقول محمود درويش «جاوزت العشرين يا أمي، فدعي الهمّ.. ونامي «.

التجهيزات الأخيرة انتهت، ما عليّ الآن إلا أن اذهب لأودع جنى، كانت سعيدة بقدر حزنها، ومبتسمة بقدر عبوسها، مدّت يدها، وأعطتني ذاك الشيء الطاهر ليحفظ روحي من كل شيء، القرآن الكريم، واضعة إشارة على سورة «الرحمن» احبّ الآيات على خافقها.

استودعت الله فيها، ليحفظها ويحفظ عائلتي من كل شر، لبست كوفيتي، وتوجهت إلى مطار الملكة علياء، مرورا بالجانب الإسرائيلي المنفرّ.!

ساعات تفصلني عن موعد إقلاع الطائرة، رهبتها انشقّت عن جسدي، لم اعد أهاب الارتفاعات.

في قاعة الانتظار، جنسيات مختلفة، ولهجات متفرقة، أشكال وألوان وطبيعة حياة لا تشبه الأخرى، لا أرى أي فلسطينيّ في المكان، وجوههم تشير لي إلى أبناء الدم الواحد، وأنا الغريبة هنا دون أحد.

حلّقت الطائرة حاملة معها أحلامي التي وعدت تراب وطني ألا أعود وانا خالية الوفاض منها، فترة الجلوس في الطائرة طويلة، لكن حقيبتي لا تخلو من المسليات الورقية، الخيميائي كان رفيقي في تلك الرحلة، استوقفتني عبارة قالها باولو كويلو «قل لقلبك إن الخوف من العذاب أسوء من العذاب نفسه، وليس هناك من قلب يتعذب عندما يتبع أحلامه، لأن كل لحظة من البحث هي لحظة لقاء مع الله والخلو «،عانقت الثقة روحي وآمنت بنفسي.

ساعات مرّت، تأملت المقاعد حولي، تلك السمراء التي بجانبي تقرأ معي خلسة بعينيها السوداوين الحادتين، شعرها مجدّل، وشفتيها ممتلئتين، وعلى الناحية الأخرى صغيرة شقراء زبرجدية المقلتين نحيلة القامة، أما اللذين يجلسان أمامي حروفهما الغليظة المرنة، وعبائتهما الشرقية، كل هذه الأشياء مألوفة إلي، وعشرات الملامح الأخرى أشعرتني بوجود وطن آخر مغاير لتفاصيلي، يجتمعون فوق سماء واحدة دون حدود أو خرائط ميتة.

البتلة الثالثة

ها أنا بدأت أعانق تراب الجزائر ليلا، من مطار قسنطينة – محمد بوضياف بدأت رحلتي، حملت أمتعتي، نظرت حولي وكأن المدينة تدور وأنا ساكنة الجسد والفكر، لهجتهم غريبة وسريعة، ممزوجة باللغة الفرنسية، الوقت متأخر جدا، وأنا خائفة من غربتي ووحدتي وعتمة هذا المساء.

سيارة أجرة صفراء توقفت أمامي، ركبت بها وأنا أدعو الله التوفيق في المسير..

- السلام عليكم
- وعليكم السلام يا ابنتي، وين رايحة؟
- حي قدور بو مدوس
- معليش بنتي تفضلي، وين بالضبط نوديك؟
- بمنطقة الجامعة الإسلامية
- لهجتك مش ديزايرية من وين أنت؟
- أنا من فلسطين

- آه مرحبا بيك في دزاير واكي بين أهلك وناسك.. واش يخصك رانا هنا

لم أفهم بعض عباراته، لكني بدأت أشعر بقليل من الطمأنينة، رغم عتمة الطريق، إلا أن الشوارع كانت مضيئة بوجوههم السعيدة، حيوية مشتعلة اخترقت قلبي، لكن التحدي الأكبر الذي كنت أواجهه في تلك اللحظة، هي العملة الجزائرية...!، لكن لحسن الحظ قمت بتحويل الشواقل إلى دولارات قبل السفر.

- كم الأجرة عمي؟

- والله يا بنتي بالعادة ١٥٠دينار دزايري بس ع وجهك الزين أعطيني وش تحبي وكثر خيرك.

- شكرا الك، كم بالدولار؟

- ١,٥ دولار

- تفضل

وصلت البيت الذي سأعيش فيه، لكن تحدٍ ثانٍ كان بانتظاري، وهو رفيقتي في الغرفة، مدة سنتين ليست بفترة قصيرة، ولا احتمل انتهاك خصوصيتي، حتى في أبسط الأشياء إليّ، الضوء مشتعل بالداخل، أظنها قد وصلت، طرقت الباب بخفّة..

- لجين، أليس كذلك؟

- نعم صحيح.. وأنتِ؟

- سماح من الأردن.. تفضلي.

غرفتي قريبة من الجامعة، إطلالتها ساحرة، اجتاحتني السعادة حين علمت أن رفيقتي في الغرفة أردنية الجنسية، وسندرس التخصص نفسه، لطيفة الهيئة، وتدخل القلب باسترسال، فرغّت حقيبتي ومددتُ جسدي المنهك، غدا هو يوم حافل بالاستكشاف، هاتفت عائلتي لأطمئنهم، لقد بدأت أشتاقهم من الآن.

لم أشعر أنني أخذت كفايتي من النوم، أربع ساعات لم تكن كفيلة بذلك.

- لجين، لجين.. الساعة الآن السابعة صباحا استيقظي.

- سماح؟ صباح الخير..

- صباح النور يا لجين، هيا حضّري نفسك، هذا يومنا الأول.

صداع قاسٍ يعصر رأسي، وجسدي مثقل، غسلت وجهي وشربت قهوتي، حملت حقيبتي وتوجهت إلى أول خطواتي مع النجاح.

بناء ضخم يوحي بالهيبة، قبة شامخة كأنها مئذنة جامع تصدح بالخشوع، جدران بيضاء عتيقة، منحوت عليها "جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية»، وآلاف الطلبة الذين يحملون كتبهم بين صدورهم، حبا وأملا وإيمانا بأحلامهم.

شيء ما أثار استغرابي، لست وحدي من أرتدي الكوفية الفلسطينية، هناك أعداد كبيرة تضعها على أكتافها كنوع من التضامن، اقشعرّ بدني، وأيقنت أن الوطن يُزف في قلوبهم كما يزف فينا، لا المكان ولا الجنسيات، الوطن فقط.

تعرفت على زملاء كثر خلال اليوم الأول من الدوام، لم اشعر بحاجز يقف عائق بيننا، أما الجوع فكان يدق أبواب معدتنا، هذا الطقس الرائع لا يحتمل جلوسا بين أربعة جدران، بدأنا نمشي دون غاية معينة ندركها ونتبع حاسة الشمّ، حتى وجدنا أنفسنا أمام مطعم خشبي صغير تنطلق منه رائحة شهية مليئة بالبهارات، أما الصدمة كانت أن المحل نسوي بامتياز، طاهية للطعام، وعاملة نظافة، حتى المالية والجرسون والمدير، لا يوجد حسٌّ ذكوري هنا، يقدرون المرأة ويصنعون من أنفسهم سلسلة بناء للإعمار والإحياء.

- يعطيك العافية

- أهلا بيك ومرحبا وشراكي بنتي

- أهلا فيكِ، بدي "منيو" الأكل لو سمحتِ

- شوفي بنتي اليوم عندنا شكشوكة وسلاطة روز وروز في الكوشة، أما طبق اليوم دولمة لان كل يوم نعمل اكل خاص.

لم أفهم شيئا مما قالت سوى الشكشوكة، فهي من الأكلات الشعبية في فلسطين أيضا، مزيج من البيض والبندورة والبصل، لكن التجربة والمغامرة هنا تحدٍ ثالث حلو المذاق.

- دولمة؟ شو مكوناتها؟

- هي أساسها لحم مرحي وتكون معها صوص بيضاء

- رح نجربها، بدنا اثنين دولمة واثنين عصير برتقال

- معليش بنتي، حاضر

وفي نظرة تأمل للمكان، استهوتني نسائم عبق التاريخ المندفعة من كل جزء فيه، صور قديمة مغزولة على الحائط تحكي قصص الثورة الجزائرية، عبد القادر الجزائري، وأحمد بن بله، هواري بومدين، وجميلة بوحَيْرَد، تلك المقاومة الجزائرية التي أعادتني بذاكرتي لدلال المغربي، شعرت بارتباط قومي وثوري يجمع بلدين في إطار معتق بأسمى آيات النضال والصمود.

أما سماح فكانت تقلب هاتفها، تارة تميل ثغرها وتارة تعبس، لم أجد فرصة أفضل من هذه لأعرف عنها أكثر، هي فتاة محجبة، زيتونية العينين، شقراء الحاجب، دائرية الوجه، ومتوسطة القامة.

- سماح، حدثيني عنكِ قليلا.

- أنا يا لجين ٢٢عاما، أسكن في مدينة الزرقاء بالأردن، لدي شقيقان وشقيقة واحدة وأنا أكبرهم سنّا، درست القانون برغبة قاهرة لشدة الظلم الذي اشعر به في كوكبنا المريب، انتهاك للطفولة، وقهر للرجولة، وظلم للنساء، جُبلت على حب الوطن حتى ولو كان بكلمة أو وشاح، تعلقي بعائلتي لا حد له، والصوم عن العمل يقتل روحي ويشعل داخلي ذكريات لا أريدها، لذلك أشغل وقتي بأي شيء حتى لو كان غزل بالصوف أو أعمال يدوية بالخرز.

كم تشبهني هذه المجنونة، رغم هدوئها إلا أن بركانا في خافقها يشتعل حبا لكل الأشياء حولها.

قاطع حديثنا طبق الدولمة على معدة فارغة.

- تفضلي بنتي، بصحتك

- شكرا الك غلبناكِ

الصمت اكتسح الطاولة، كان مذاقه رائعًا وغريبًا ومليء بالتوابل، كنا بحاجة لهذه الوجبة الدسمة، ٦ دولارات كان مبلغا ضئيلا مقارنة بجودته.

عدنا إلى المنزل وأرواحنا تطير سعادةً، مر شريط يومي كاملا أمامي وانا اقرأ كتبي الدراسية، تذكرت عبارة قالها المحاضر في الجامعة اليوم «قانون العقوبات ١٥\ ٠٤ ينص على اعتبار التحرش جريمة يعاقب عليها القانون باعتبارها عنفا ضد النساء وتفرض عقوبة

سجن من شهرين إلى سنة كاملة وغرامة مالية من (٥٠،٠٠٠،٠٠) إلى (١٠٠،٠٠٠،٠٠) دينار جزائري على الفاعل»، يا لبشاعة هذه الجريمة التي تموت مقابل مبلغ ماديّ سخيف، لو أننا أدركنا القهر النفسي الذي ستعيشه الفتاة، لكان الحل قطع رأس هذه الذئاب المريضة.

عانقني النعاس، وذهبت في سبات عميق.

استيقظت هذه المرة على صوت المطر يضرب زجاج غرفتي، فصلي المدلل، الشتاء الذي يحمل في ثناياه تفاصيل نقية وجمعات عائلية حين كنا نجلس نستنشق ترابا مغزولا بزخات متقلبة، تحيط أنفسنا بدفء الاحتواء، نكسّر الكستناء، ونتحايل على كوب القهوة ليعطينا شيئا من سخونته، ما زلت اذكر شكل نابلس وهي ترتدي ثوبها الأبيض في بداية العام الماضي، كانت أشبه بزهرة الهيدرانجيا الهادئة.

الطريق رطبة، شوارع قسنطينة غارقة، انعكاس الغيوم يقبّل نوافذ السيارات، أخترت أن أذهب إلى مكتبة الجامعة حتى تذوب البرودة قليلا.

هدوء عذب جدا، المكان ممتلئ بالمبللين، ينتظرون أن تجف ملابسهم، يحتمون بالكتب المتطايرة في كل زاوية كحجة لهم للبقاء، طاولة واحدة فارغة بمقعدين، وكأنها تنتظر حضوري.

سأكمل حيث توقفت في الخيميائي عند الصفحة ٧٩، يقول الكاتب هنا «عندما تريد شيئًا ما حقا، فإن الكون بأسره يطاوعك على تحقيق رغبتك»، لم أتفق معه كثيرًا في هذا، ما أكثر المنغصات وآكلي

السعادة يا كويلو، في كل محطة أمامك ترى مطبات بشرية تقتل فيك الأمل لتعود ألفا إلى الوراء.

قاطع أفكاري صوت رجولي خشن:

- مرحبا

- أهلين

- آسف ع مقاطعتك، بس مش لاقي مكان فاضي، ممكن أقعد هون؟

- تفضل

لهجته ليست جزائرية، حتى ملامحه الشرقية قريبة جدًا ومميزة، فيه شيء مختلف لم المسه، كان غارقا في كتابٍ لم أستطع قراءة اسمه، رفع رأسه ونظر إلى كوفيتي..

- شكلك بتحبي فلسطين؟

- في حدا بحبش بلده؟

ملامح الذهول تشربت إلى جسده، عدل من جلسته، وشقت وجهه ابتسامة هادئة..

- أهلين ببنت البلد

- حسيت إنك مش جزائري

- أنا من غزة، إلي ثلاث سنين بقسنطينة، محاضر في الجامعة تخصص إدارة.

غزة، شق البرتقالة الثاني للضفة الغربية، توأمنا البعيد، يفصل بيننا معبر «إيرز» الإسرائيلي، منع شبابها من دخول مدن الضفة بعد عام ٢٠٠٧ نتيجة خلافات سياسية حزبية، ثلاثة حروب مقيتة راح ضحيتها آلاف الفلسطينيين، كنا نصوم ونفطر على دمائهم.

- تشرفنا أستاذ

- وأنتِ؟

- أنا من الضفة، بدرس ماجستير قانون شرعي

لم أستطع أن اجلس معه أكثر، موعد محاضراتي أوشك على البدء، ثم انه غريب لا أعرفه.

- بستأذن منك لازم أروح

- خدي راحتك، وإذا احتجتي إشي اعرفي انه الك أخ هون من ريحة البلد بساعدك.

- شكرا الك.

- بس عفوا يختي أنتِ شو اسمك؟

- لجين

جاء في مخيلتي حديث جارتنا الغزاوية التي ترى الرجولة نابتة بين ضلوع شباب غزة، يخافون على عرضهم، ويكونون سندًا وعونًا، أولئك الرجال الذين رسمت معالم النخوة على جبينهم، كلمتهم سيف على رقابهم، وإذا قالوا فعلوا.

تابعت دوامي الدراسي كالمعتاد، وعدت لأطمئن على عائلتي..

- أمي، كيف أنتِ، اشتقت إليكم!
- ابنتي الحبيبة نحن بخير، كيف أحوالك أنتِ؟
- لا تقلقي يا أمي أنا بأفضل حال، والدي وأخوتي؟ وإيليا؟
- إيليا تخبئ لنا هدية في جوفها يا ابنتي، ستصبحين عمة.!
- ما أروعه من خبر، الحمد لله، الحمد لله

الأطفال، نعمة الحياة وروح البيت، أعشقهم ومتيمة في تفاصيلهم، سعادة الكون بين ضحكة منهم وعناق، أتمنى لها السلامة.

تمر الأيام وأنا أضيع بين حلم وغربة، الاشتياق يقسو علينا أحيانا، فنحبط، لكن ما علينا ألا أن نمسك بيدنا ونقف وحدنا من جديد، موعد الامتحانات اقترب، لا املك شيئا سوى الدراسة الآن، لأجل ثقة عائلتي.

تدخل سماح الغرفة حاملة معها ورقة وتضعها على المكتب.

- ما هذه الورقة يا سماح؟

- لا أعلم يا لجين، ورقة تم توزيعها اليوم في الجامعة ولم أهتم بها، تعالي وانظري إليها، سأذهب لأستحم.

كانت الورقة إعلانا لاحتفال ستقيمه الجامعة غدا بمناسبة يوم الاستقلال الفلسطيني، وكيف أنسي أن وثيقة إعلان الاستقلال كانت في مدينة الجزائر، حين أعلن عن استقلال دولة فلسطين وحددت القدس عاصمة أبدية لها، وبدأ الجيش الجزائري حينها بعزف النشيد الوطني الفلسطيني في الـ ١٥ من نوفمبر عام ١٩٨٨، لن أضيع هذه اللحظة.

صوت المطر اشتد أكثر، كانت أمي في هذه الأجواء تصنع مأكولات دافئة، أحببت أن أشعر بجوّ العائلة حتى وأنا بعيدة عنهم، بروحهم القريبة دائما، لذلك اخترت أن أطهو «المفتول» وهو مزيج من طحين القمح، والحمص ومعجون الطماطم، أحد أهم الأكلات التراثية الفلسطينية.

- سماح، الطعام جاهز

- شهي جدا يا لجين، أشكرك

ما زالت العلاقة رسمية جدا بيننا، سماح صامتة جدا، لا تتحدث كثيرًا، صوتها منخفض، وشاردة الذهن دائما..

- أشعر أنك غير سعيدة بالجزائر

- على العكس تماما يا لجين، لكني لا أقوى على التعبير عن مشاعري بسرعة، وهذا ينفّر الكثيرين من حولي، هل أسألك سؤالا؟

- تفضلي

- أأحببتِ يوما؟

سؤال غير متوقع أبدًا، لست من النوع الذي يحدث عن تفاصيله بسرعة ولأشخاص لم أعاشرهم جيدا، إجابتي كانت قصيرة جدًا على قدر سؤالها..

- مررت بتجربة وأخفقت، وأنتِ؟

- أحببت رجلا غير الذي ارتبط به.

- لم افهم!

- أجبرت على الارتباط بابن عمي لأن والدي أراد ذلك فقط، أما قلبي لم يحبه يوما، اقترب موعد زفافنا، ينتظرني أن أعود من سفري حاملة شهادتي التيّ سأعلقها على خزانة المطبخ.

- وماذا عن الذي أحببته؟

- رفضه والدي لأجل مستواه التعليمي، يحمل شهادة الثانوية العامة لكنه طموح وخلوق ويعمل لأجل تأمين حياة كريمة، طرق باب منزلي مرارًا، وفي كل مرة يُغلَق أكثر، حتى أُجبرت على لبس خاتم من ورق مع رجل غيره، لم أرتديه يوما، ولأني لا أستطيع إيصال

مشاعري بسهولة، ظن أني لا احبه ولا أدافع عن رغبتي به، فذهب في طريقه.

- أرفضي واقعك يا عزيزتي، الزواج خلق لنكون سعداء، لننجب أجيالا تحب الحياة بقدر حبنا لهم، قولي «لا»، لكل ظلم تقودين نفسك به إلى الهاوية، تزوجي لأنك تحبين ذلك، وقومي بواجباتك حبا لا كرها، اغزلي لعائلتك طعامهم كما تغزلين صوفك، بنَفَسِ الأم الخالي من الحزن.

أشفق على كل المعذبين من الحب، ليتنا ندرك أن الحب مصطلح مقدس لا يمكن أن نجبر عليه، كيف لي أن أعيش مع رجل لا أحبه تحت سقف واحد، أنجب أطفالي منه وأنام بطمأنينة بجانبه؟، لو كان المال والشهادة يصنعان الحب، لما كنا نبحث عنه بل لصنعناه كما تُصنع تماثيل الآلهة ونصدق بأنها ستشفع لنا، نحن بحاجة الحب أكثر من الخبز.

عينا سماح الدامعة تشبه عيون الكثير من الفتيات اللواتي يتحركن كقطع الشطرنج على طاولة النصيب والقدر، لم اؤمن يوما بالزواج التقليدي الذي تأتي فيه الأم لتراني بأجمل الحالات أمامها، تقيّم شعري وطولي وجسدي وحجم عيناي وقصر لساني، فتذهب لتنقل صورة معرّاة تماما من اعتباري عقل وجسد معا، تعطي لابنها تذكرة القبول أو الرفض، فيأتي هو ليقرر هل أصلح مزهرية في منزله أم لا،

ولا أؤمن أيضا بالحب المبتذل المصطنع، الذي يخلق فتاة فارغة من الأخلاق، فتخفض رأسها أمامها، وفي نهاية المطاف يتركها ذلك الذكر فهو لا يستطيع العيش مع ماضيها الذي صنعه بقذارته، فتأخذ رجلا شرقيًا آخرا يظنها ملاكًا منزّلًا خاليًا من التجارب، أنا اؤمن فقط بالحب البريء الذي يبدأ بالقلب قبل القالب، فيحافظ عليها ويصون روحها، ليتوجها أميرة في بيته طوال العمر.

ذهبت سماح إلى غرفتها وهي تحبس دمعتها، وأنا نمت أدعو الله أن تتخذ قرارًا خاليًا من الندم.

الجو مشمس، والطريق إلى الجامعة ممتع، النشيد الوطني يصدح في أرجاء المبنى كاملًا، الطلبة يرفعون العلم الفلسطيني والجزائري معا، بت أردد «فلسطين داري ودرب انتصاري.. فلسطين ثأري وأرض الصمود»، أدمعت عيناي فرحا بما أراه كان المشهد أكبر من أن يوصف، أقشعرت كل خلية في جسدي، تذكرت كل شهيد وكل أسير، الآلف القلوب التي تغني الآن بيوم الاستقلال المزعوم، ما زال وطني محتل يا سادة، لكن الاستقلال اليوم كان أكبر من معناه الحقيقي.

وفي هذه الضجة العارمة، كان صوته أعلى من السماعة نفسها، الفلسطيني الذي التقيت به في المكتبة، مجهول الاسم والتفاصيل بالنسبة إليّ..

- لجين.. لجين!

- أهلا أستاذ

- توقعت أشوفك هون والله، كل سنة بحتفلو باستقلالنا، إن شاء الله بنستقل فعلا

- إن شاء الله

- صحيح بدي أحكي لك في رحلة بكرة منظمتها الجامعة داخل قسنطينة، بدك تيجي؟

- ما عندي مشكلة أستاذ، وين التسجيل؟

- أنا بسجلك أسمك، وبالمناسبة اسمي «ياسر» مش أستاذ، بانتظارك

ودعني ياسر بابتسامة لطيفة جدًا، سعدت بلقائه ثانية، لكني لم أفكر بالموضوع مطلقا، وماذا يعني وجود فلسطيني شهم في غربة غير متوقعة!، لا يهم..

ساعة واحدة فقط تفصلني عن امتحاني الأول في الجامعة، الارتباك الذي أشعر به يشبه كل بداية خطوة في حياتي، المرة الأولى من كل شيء لا تقارن بما بعدها، عندها نقرر هل من هنا ستبدأ الحكاية أم هنا نهايتها؟

رهبة الامتحان قاسية، القاعة ممتلئة، لا شيء أمامهم سوى قلم وورقة وتاريخ مسجل في الذاكرة، كل واحد منا سيضع على ورقته

ما فهم من كتاب يتجاوز المئة صفحة، سيختزل كتابا كاملا في بضعة أسئلة لتعصر جمجمتك وتحصل على نتيجة تستحقها، سميت بالله وبدأت بالإجابة وكنت على يقين بعلمي وقلت سأنجح، ونجحت فعلًا.

هذا الاختبار مشابه لعشرات الاختبارات التي تمر علينا في الثانية الواحدة، وأنت إما أن تنجح من أول مرة أو تنجح بعد عدة محاولات، لا مكان لخيار آخر.

دخلت المنزل، ورأيت سماح تجلس على كرسيّ خشبي وأمامها كوب قهوتها، تغزل بالصوف خيوطا حمراء، شعرت وكأنها تحيك بقلبها، تبتسم بعد كل غرزة صحيحة في مكانها، سيكون وشاحًا مغزولًا بالحب.

بدأت أجهز لرحلة الغد، لم تنسَ أمي أن تخزّن لي أقراص الزعتر الأخضر بزيت الزيتون وفطائر الجبنة، أذكر حين كنت طفلة، أملأ حقيبتي بكل الأشياء المهمة والثانوية، حتى ألعابي كنت أجد زاوية مخصصة لها، وانا الآن تجاوزت العشرين وما زلت أشعر باللهفة الأولى في وطن مغاير، تفاصيل مختلفة تمامًا، وأعترف أمام نفسي بأن قلبي طفولي لم يكبر، أما الكاميرا فهي رفيقتي التي لا تفارقني، تجمد كل حركة فتصبح في الذاكرة بلا روح، تماثيل محنطة فقط، لكنها ناطقة بالسعادة.

الطقس يميل إلى البرودة اليوم، لم ترغب سماح بالمجيء إلى الرحلة، يبدو أن البرد داهم مناعتها، لفحة هواء وزكام خفيف، فضّلت إكمال وشاحها وسماع بعض الموسيقى الهادئة، كانت الترانيم مريحة جدًا..

- سماح، ما هذه الأغنية؟
- عيناها لمارسيل خليفة
- ذوقك مميز، انتبهي لنفسك واشربي الشاي الساخن
- حسنا يا صديقتي، رحلة ممتعة

الطلبة يركبون الحافلات، كان ياسر من المنسقين للجولة..

- صباح الخير ياسر
- صباح الورد، يلا بسرعة اركبي هون أنا شوي وجاي

كان أنيقا جدا، ووجهه يبعث الراحة والسكينة، رغم انهماكه في ترتيبات الجولة إلا أنه لم يتركني أبدًا، جلسنا على المقاعد وانطلق السائق، وقف ياسر ليتأكد من الأسماء، وانا ضائعة بين تلك الزوايا الخضراء الحيّة على أرصفة الطرق.

توقفت الحافلة ومشينا على الأقدام، قسنطينة أو كما يقال عنها مدينة الجسور المعلقة الثمانية، جسر باب القنطرة و سيدي راشد و ملاح سليمان والشيطان و الشلالات و غيرها، كل واحد منها يروي

قصة تاريخ روماني وفرنسي مختلف، أبنية هائلة، جسور تمتد بين صخرتين وما تحتهما سراب، آلاف السنين وما زالت قابعة مكانها بشموخها ورونقها، ولاية قسنطينة محشوة بالمعالم الأثرية الغريبة، كالمقبرة الميغاليتية وضريح لوسيوس، وكهف الدببة والأروي، أما ما أثار دهشتي فعلا الأقواس الرومانية، يا لعظمتها وقِدمها، يذكر أن الماء كان يتدفق من هذه الأقواس، يمر من منبع بو مرزوف ومن الفسقية (جبل غريون) إلى الخزانات والصهاريج الموجودة في كدية عاتي بالمدينة، لم تهدأ كاميرتي أبدًا، التقط الصور بعشوائية مدروسة، كل خطوة يجب أن توثّق.

الساعة الآن الثانية ظهرًا، سنجلس في أحد المتنزهات القريبة، كنت بحاجة لهذه الاستراحة كي أكمل الجولة بدافعية أكبر.

ياسر يتجه نحوي، ووجهه مشبع بالتعب، يحمل بيده فنجان قهوة منحوت عليه «على هذه الأرض ما يستحق الحياة»..

- فنجانك حلو، بحب محمود درويش

- هدية من صاحبي رائد لما كنت بالثانوية، المهم انبسطتي يا لجين؟ ناقصك إشي؟

- انبسطت الحمد لله، يعطيك العافية أنت تعبت كتير

- لا عادي متعود، تعب ممتع

أخرجت من حقيبتي أقراص الزعتر وقدّمت له بعضا منها، أغمض عينيه وشم عبقها باشتياق مرير..

- ياه يا لجين، ذكرتيني بأمي، والله اشتقت لها.

عيناه البنية دامعة، يداري مشاعره خلف شباك الرجولة، وكيف لرجل أن يبكي، تعاليم خاطئة تربينا عليها منذ الصغر، ننسى أحيانا بأن الإنسانية تجمعنا قبل أن تفرقنا التقسيمات الجندرية، اكتفيت بابتسامة.

- احكي لي، قدرتي تتعودي ع جو الجزائر؟

- كان صعب بالبداية بس هلأ أحسن.

- بتصدقي أنتِ أول فلسطينية بقابلها هون من ثلاث سنين؟، كيف قادرة عالغربة لحالك؟

- متل ما أنت قادر عليها

رفع حاجبيه، وضحك بتعجب: «مش قليلة!»

احمرت وجنتاي، وابتسمت بخجل، شعرت بأن عفويتي تخرج من مكانها، وهنا بداية الكارثة!

- شفتك بتقرأ كتاب بالمكتبة، شو اسمه؟

- أرض البرتقال الحزين، لغسان كنفاني

غسان كنفاني، رائد المقاومة، ذاك الفلسطيني العكّاوي علّمني حب القضية، كان يقول دائما «لن تستطيعي أن تجدي الشمس وأنت في غرفة مغلقة».

- لمين بتقرأ كمان؟

- بقرأ كل شي، حتى الخط والعيون وفنجان القهوة.

أكبر مصيبة أنّي لا التقي الرجال إلا بين رفوف المكتبة، أنا مريضة بالقارئين، لا شفاء منهم.

- يلا الباصات قربت تتحرك، خلينا نقوم

بقي ياسر ملازم لي طوال الرحلة، دخلنا سوق الخرازين وسوق العطارين والصاغة والصباغين، رأينا المسجد الكبير والبيضاوي والمسجد الأخضر، مررنا عبر باب الحنانشة والقنطرة وباب الواد، حملت عدستي مرة أخرى، وما زلت أصور كل حجر في الطريق، أخاف أن يمر مشهد دون أن أنتبه ويغيب.

- لجين، بتحبي أصورك؟

- بتعرف تصور؟

- بصور منيح

لم تكن مسكته للكاميرا صحيحة، حتى الإضاءة سيئة، يبدو أنها المرة الأولى التي يحمل فيها كاميرا حديثة، وهو يدرك تمامًا أنه

سيفعل ذلك لأجلي، خلّدت صورته ضحكة من داخل أعماقي على جنونه.

الساعة الثامنة مساءً، ونحن الآن في طريق العودة، غصة تحرق جسدي رغم سعادتي، هذه المرة الأولى التي أتجول فيها دون هويتي أو بطاقة عبور، لا يوجد حاجز إسرائيلي يسألني أين سأذهب، ولا نقطة تفتيش تدنس حقيبتي وتخلع عن كتفي وطنيتي، مشاهد متكررة كل ساعة، أصبح العدو روتين اعتدنا عليه وكأن دولتنا خلقت لتكون مقسمة بين غاصِب ومغتَصب، نظن بأننا أحياء بخبزنا ومائنا ونحن الميتين بسجننا وعزائنا، لا أخجل بأن أقول «الآن شعرت بأن وطني محتل».

كانت المحطة الأخيرة للحافلات أمام باب الجامعة.

- لجين، بتحبيأ؟

- لا ياسر، بروح لحالي

- لا بدي أوصلك، الوقت متأخر يلا امشي

أصّر على مرافقتي، كنت خائفة من الطريق فعلا فلم أمنعه، شممت رائحة مألوفة، مرّت فترة طويلة لم أستنشق فيها الياسمين، كان الغصن مثقلا بتلك اللآلئ البيضاء..

- بتحبي الياسمين؟

- لا

- غريب، كل البنات بحبو الياسمين

ماذا سأجيب، هل أخبره أنى كنت متيمة بها لكن خيانة قصفت حبها في صدري، أم أقول له بأن رحيقها أذاع خيبة معسولة بالمرار!، اكتفيت بالصمت.

- وأنتَ؟ شو زهرتك المفضلة؟

- أنا بحب الجوري

الحديث معه ممتع لا ينتهي، عفويته ساحرة جدًا، أحسست بقصر المسافة رغم طولها..

- وصلنا، شكرا الك ياسر

- ما تشكريني هاد واجبي

- يلا تصبح على خير

- انتبهي ع حالك، وأنتِ من أهله

طرقت الجرس أربع مرات دون مجيب، التفت خلفي، مازال ياسر واقفا ينتظر دخولي، أشار بيده مودعا عندما فتحت سماح الباب، كانت تتصبب عرقا، حرارتها مرتفعة، وجنتيها محمرتين جدًا، لم أعتقد بأنها مريضة إلى هذا الحد، قضمت أصابعي ندما، كيف تركتها وخرجت!

الوقت متأخر، لا يوجد مستوصف قريب من هنا، شعرت بالعجز..

- سماح، استلقي هنا

صنعت لها كمادات باردة، وشوربة خضار دافئة، بقيت بجانبها حتى استغرقتْ بالنوم.

أخيرا سأنام، يوم شاق جدًا، كل جزء في جسدي متعب، استلقيت على سريري وأنا أذوب نعاسا، لكني تذكرت كل تفاصيل ياسر، ضحكته، حركاته، عفويته، رجولته، مواقفه كل شيء فيه لا يفارقني، طيفه ملأ وجداني، لم أستطع النوم، كلما مرّ في مخيلتي، أتقلب في فراشي، ماذا يحصل لي، «لا، استيقظي يا لجين»!، لا أريد رؤيته مجددًا يا الله، أنا أخاف الأطياف.!

اليوم الجمعة، إجازة عن الدوام، الساعة الآن العاشرة صباحًا، استيقظت ورأيت سماح تعد الفطور وهي بصحة جيدة..

- صباح الخير يا سماح

- صباح النور، هيا.. لنفطر

- كيف صحتك؟

- الحمد لله بخير، لقد أتعبتك البارحة شكرا لك

- لا أبدا، نحن اخوات، لكن أراكِ سعيدة اليوم، هل حصل شيء معكِ؟

- اتصل عليّ والدي اليوم، وهذه أول مرة أتجرأ فيها وأخبره أنى أريد الانفصال عن ابن عمي

- وماذا أجابك؟

- بالطبع رفض، لكني مصممة على قراري، كلامك زرع بداخلي يقين ألا أتاجر بسعادتي لأجل عادات وتقاليد ميّتة.

القرار هو المرحلة الأولى والأخيرة، به تبدأ الحكاية وتنهي، فرحت لأجلها، قلبها نقي يستحق السعادة.

- لجين، اليوم حفل زفاف صديقة لي من الجزائر "عائشة" تعرفت عليها في الجامعة، ما رأيك أن تأتي معي؟

- لا مانع أبدًا

اختارت سماح أن تلبس فستانا كرزيًا وشالًا أسودًا، كانت آية من الجمال، أما أنا ففضلت قميصا قرمزيّا وتنورة قمحية، واكتفيت بقليل من الكحل الأسود.

وصلنا قاعة الحفل، كانت المقاعد طويلة بيضاء منقوشة بالخربزي، وفي المنتصف باقة زهر سكريّة مغزولة بالورق التفاحي، كل شيء غريب هنا، الوجوه والموسيقى والأثواب، لا شيء مألوف غير الفستان الأبيض، تراث آسِرٌ مختلف، تجولت في أرجاء القاعة، رفيقة العروس تلبس فستانا مزخرفا أخّاذًا وتسدل حجابا على شعرها، اجتاحني الفضول لأعرف أكثر عن عادات الزواج في قسنطينة..

- مساء الخير، مبارك زفافكم.

- مساء النور، ربي يبارك فيك.

- أنا زميلة عائشة في الجامع.

- مرحبا بيك بالدزاير، نظنّو إنك فلسطينية من لهجتك.

- مزبوط، من فلسطين، ولفتت نظري الأجواء الجميلة، احكي لي شوي عن عاداتكم بالزواج.

- إحنا في عاداتنا الخطوبة تكون عندها مراحل يعني أب العريس يحكي مع أب العروس في المسجد انو بدهم البنت بعدين أم العريس يشوفو العروسة ويتعارفو ويعملوا الخطبة كاين عوايل يقراو الفاتحة يوم الخطبة على نية التوفيق، وبعدين عندنا قانون في الدزاير إن الزواج الديني في المسجد لا يتم إلا بالعقد المدني و كل واحد وحريتو متى يتزوج لكن دايما قبل العرس بيومين، في العرس عندنا حفل البنت نسميه الدفيعة لأنو أهل العريس يزورها يعملولها الحنة، وهي تلبس الزي التقليدي الفرقاني وتلبس اللباس التقليدي لبعض الولايات الدزايرية نسموها التصديرة، و في اليوم الثاني العروسة تروح لاهل زوجها، أما العريس عرسو يكون قبل بيوم وهو تاني يعمل حنة، والعرس الكبير يكون يوم يجيب مرته لبيته.

- يعني الحفل بمتد ثلاث أيام؟

- ومرات خمسة كمان، لما تحضّر العروس الشورة يعني العفش تعزم صحباتها ويغنو ويرقصو معكلو مهرجان مش عرس، طبعا عندنا المالوف القسنطيني، لما يعملولها الحنة وتخرج من دار أبوها تغني النساء أغاني أكثرها مديح.

شعرت بطاقة جميلة تسري بجسدي، السعادة تملأ كل ذرة في المكان، ضحكاتهم المرتفعة، لا يرتسم الحزن على وجه أحد.

جلست بالقرب من سيدة كبيرة تمتزج ضحكاتها بتجاعيدها الستينية، ترتدي زيّا طويلا مخمليا تبدو عليه مظاهر الترف، خمري موشّح بالزعفراني، أما نقش الحناء فكان يمتد على أصابعها ليرسم عنق وردة كستنائي ساحر.

- السلام عليكم خالتي، مبارك لكم

- وعليكم السلام بنتي، أهلا بيك

بقيت عيناي تداعب تفاصيل ثوبها، نظرت إليّ السيدة بابتسامة هادئة..

- ما نظنّوش إنك من الدزاير

- نعم، أنا من فلسطين، وبصراحة جذبني ثوبك جدًا

- هذا الثوب تراث دزايري نسموه الكاراكو، يكون قطعتين أو قطعة واحدة كلها نقوشات.

ذهلت من جمال الفساتين المعلقة على أجساد النساء، بدأت أشير للسيدة وأسالها عن أسماء الأثواب، وهي تقول هذا الشاوي وهذا القبايلي وذاك الشدة وهناك العاصمي والوهراني والسطايفي والنايلي والتونسي، رأيت في عينيها نظرة فخر بتاريخها وعراقة تراثها.

أيقظ شرودي طلب السيدة أن أذهب معها إلى زاوية الحلويات، رائحتها جذابة، أنواع كثيرة، بعضها مألوف وآخر غريب، منها بالتمر وهناك الفستق والجبن والقشطة المقطّرة.

- نحنا نقدمو في الأعراس سبع أنواع، المقروض، والبقلاوة، والقطايف، والغريبة، والعرايش، والشاراك، والقنيدلات، وكاين أنواع أخرى متل طمينة اللوز والصامصة والقريوش، كلش لذيذة، ذوقيها.

كان مذاقها شهيًا جدًا، لن تغادر هذه المشاهد مخيلتي، ستبقى عالقة بين طيات ذاكرتي لأنقلها معي إلى وطني، لكن سؤالًا مهما خطر ببالي حينها..

- بتكلف الأعراس كتير خالتي؟ أي حد بقدر يتزوج بسهولة؟

- إيه والله بنتي يكلف كتير من الجهتين، العريس عليه المهر والعرس وغرفة النوم، وخصوصا إذا كان الشاب الأول في العيلة يعملو عرس كبير وضخم، والبنت يكون عليها العفش واللبس والذهب والمحزمة، المهور تكون تقريبا ١٥٠،٠٠٠ دينار دزايري، يعني خلينا نقولو ١٤٠٠ دولار

كثيرًا ما أنتقد اعتبار الفتاة سلعة تباع وتشترى في سوق الجواري، يتبارزون أيهما أغلى سعرًا، وكأننا نضع هذه الأنثى في مكيال يقيس قدرها مالًا، يبقى الرجل يجمع ثمن ساعتين حفل زفاف بعرقه، وتبقى الديون كغيمة تمطر هموما على سقف أيامهم، فقط لأجل مظاهر اجتماعية سوداء كالجحيم، لو كان المهر رجولة وحبًا، لاندثر أسم العانس والمطلقة.

عدنا إلى المنزل وأول ما فعلته قبل النوم هو محادثة جنى، اشتقت لها فعلا..

- جنى، كيف حالك؟
- لجين!، اشتقت لك جدًا، ما هذه المفاجأة الرائعة
- رغبت بالاطمئنان عليكِ، ما هي أخبارك؟ وأخبار حسن؟
- بأفضل حال، ها هو يجهّز لإطلاق ديوانه الشعريّ الأول «سيلا»
- ماذا تعني سيلا؟
- الحنين إلى الوطن

هذا ما أشعر به فعلا، أشتاق لوطني وأتوق لكل نسائمه، لا أتحمل الغربة، هواءه فقط من يحيي قلبي الميّت دونه.

صباح جديد، ويوم دوام اعتياديّ، لكن ما أثار استغرابي هذه المرة، وقوف ياسر أمام كليّة القانون، حاولت إقناع نفسي كثيرًا بأنها

مصادفة لكن يصعب تصديق ذلك، كان يحمل ظرفًا أسودًا، أما أناقته فهي سرٌ لا أفهمه، فيه شيء ملفت حقا!، أدرت رأسي وكأني لم أراه، لا أريد التعلق به أكثر.

صوته يردد اسمي، لا أستطيع تجاهله.

- لجين.!

- أهلا ياسر!، معلش ما شفتك

- كنت متأكد رح أشوفك قبل ما تروّحي، معي هدية صغيرة بتقبليها مني؟

- لا ياسر ما بصير هيك!

- هالمرة بس، يلا خديها

سلمّني الظرف الأسود، لم أدرك أبدا ما يحتويه، بدأت أخمن، أيمكن أن تكون زجاجة عطر، أو أسورة، لربما قلادة أو شال!، وأنا في زحمة التفكير، وقعت من ياسر علبة صغيرة.

- ياسر، وقع منك إشي عالارض

حمل العلبة بلهفة وأعادها إلى جيبه واستأذن مني بالمغادرة، كانت دائرية صغيرة لونها مائي، لم أستطع معرفه ما بداخلها، لكن أظنها غالية جدًا على قلبه، ليس من حقي أن أسأله عنها.

عدت إلى بيتي وفتحت هديته، لم تكن متوقعة أبدًا، فيها رائحة عطر مختلف تمامًا، «الدُقّة الغزاوية»، نوع من أنواع الزعتر المطحون، دسّ بينها ورقة كتب فيها «تقاسم أشيائك مع من تحب»، لا يمكن وصف سعادتي، مختلف بكل شيء، لم يحضر شيئا متوقعا كباقي الرجال الذين يشعلون الروح حبا بروتينهم الممل، أخاف أن أرى الوطن فيك يا ياسر.!

البتلة الرابعة

ثمانية شهور مرّت، الامتحانات انتهت، وأنهيت معها نصف طريقي نحو الحلم، علامة الامتياز كانت رفيقتي التي سأزور بها وطني وأهلي، رتبّت حقيبتي، علقّت كوفيتي على صدري وتركت شيئًا من أحلامي الباقية تنتظرني هنا، عانقت سماح على أمل اللقاء بها بعد انتهاء الإجازة السنوية، فتحت باب منزلي لأغادر، لكن ضيفًا جميلًا كان يقف على الشارع المحاذي، ياسر الذي استملك روحي بقلبه، الرجل الذي كان سندًا وعونًا لي في غربتي.

- ياسر!، شو بتعمل هون؟

- جيت أودعك، عفكرة أنتِ أحلى أشي صر لي بالجزائر، ما تطولي

كنت أتمنى أن أقول له نفس الكلام، وأخبره بأنه السعادة التي هونّت عليّ غربتي، لكن حاجزًا مقيتا يخنق صدري ويبعدني عنه، حاجز الخوف، لربما الخوف من تجربة أخرى كالعلقم القديم!، عانقته بالدعاء واتجهت إلى مطار محمد بوضياف مرورًا بمطار الملكة علياء، وصولًا إلى نابلس.

وقفت على عتبات مدينتي، قُبض قلبي، ورعشة هزّت جسدي دون سبب يذكر، التعاسة تخيّم على وطني، الوجوه كئيبة، والحياة ميتة، والأغاني الوطنية تصدح في كل بيت وحارة وشارع، استعذت بالله، ودعوته أن تكون كلها تهيؤات لا صحة لها.

ركبت السيارة وتوجهت إلى منزلي، فتحت الباب ورأيت عائلتي متجمعة حول القنوات الإخبارية، وفور رؤيتي أغلقوا التلفاز واحتضنوا روحي بالاشتياق، شممت فيهم دواء الغربة، كل شيء ما زال في مكانه، غرفتي كما تركتها، لا ملجأ لنا بغير أوطاننا.

انهالت عليّ الأسئلة بشوّق واهتمام، عن سفري وإقامتي وجامعتي وكل شيء، أحسست بطعم الإنجاز فعلا حين رأيت وجه والدي يفيض بالفخر والسعادة فور معرفته بتحصيلي العلمي، أيقن بأنه ترك ورائه فتاة بألف رجلٍ، حملت المسؤولية على عاتقها ولم تعد بغير النجاح.

أسكت حديثنا صوت طفولي باكٍ حديث الولادة، فرد جديد انضم إلى عائلتنا، ابنة أخي «شام»، جاءت إليليا تحملها بين ذراعيها كقطعة فيروز ثمينة، كانت ملاكًا ناطقًا، سميّت بالله وعانقتها بهدوء، شممت أريجها ولمستها بشغف، يداها صغيرتين جدًا، تشبه أخي بتفاصيل وجهه الحادة عدا عينيها، فهما بجمال عيني إليليا السوداء.

لم يهدأ قلبي بعد..

- أمي، هل وضع البلد مستقر؟

- نعم يا ابنتي بخير، لا تقلقي

لم أصدقها، لكنني حاولت التناسي، متعبة جدًا من السفر ولم أستطع التفكير، ذهبت إلى غرفتي واستلقيت على سريري، غفوت حتى الصباح، لكن هذه المرة لم استيقظ على صوت الباعة في الطرق، ولا على الأطفال يلعبون في الشارع، صمت مزعج، شعرت أني ما زلت في الجزائر، صوت أمي اخترق أذني فقط، اشتقت لطاولة الفطور مع عائلتي، رائحة الخبز لا تقارن بشيء، تحتضنني الطمأنينة بقربهم.

ذهب والدي إلى العمل، وبقيت مع أمي أخبرها بتفاصيل رحلتي، لم أترك شيئا إلا وحدثتها عنه، رغم أني لا أخفي شيئا عنها إلا أن ياسر كان السر الأكبر، لم أستطع الحديث عنه أمامها.

- لجين، اذهبي إلى جنى يا ابنتي، لم تتركنا بغيابك أبدًا، ظلّت معنا بكل مناسبة تشم فيها رائحتك من بعيد، وقفت بجانب إليليا وقت ولادتها، كانت نِعم الابنة، ستسعد بك

- حسنا يا أمي، سأذهب الآن

مشيت بين زقاق حارتي، العلم الفلسطيني يغزو البيوت، الحركة خفيفة جدًا في الشوارع، كل جدار مغزول بصور شهداء نساء وأطفال ورجال، مررت بينهم وأنا أتفحص الأسماء وكأنني أبحث عن نتيجة

الثانوية العامة، عند كل اسم امرّ عنه أحمد الله أنني لا أعرفه، لكن قلبي يمطر حزنا عليهم، كلهم مجهولون إليّ عدا واحد، رأسه الشائبة وعنفوانه، عربة الكعك، الكثير من السكر، صوته الذي كنت أستيقظ عليه كل صباح، ورقة مرسومة بصورته كتب عليها الشهيد أبو احمد، تفاصيل مازالت عالقة في رأسي، قدماي لم تعدا تحملاني، أحسست بقهر وعجز وفخر، مشاعر متفاوتة غزت جسدي الميت دون صوته.

أمام باب بيت جنى، الحزن انتزع فرحتي بلقائها، عانقتها بقوة، ما زالت تلك الجميلة تزداد جمالا..

- لجين!، كم سعيدة برؤيتك، الحمد لله على سلامتك

رسخت الصدمة على وجهي..

- لجين؟ هل أنت بخير؟

- كيف استشهد العم أبو أحمد يا جنى؟

طأطأت رأسها، ودمعت عيناها، بدا وجهها لا يفسر..

- منذ أن سافرتِ يا لجين، والوطن نازف لا يشفى، العم أبو أحمد قتل بدمٍ بارد تماما كما استشهد المئات مثله خلال هذه الفترة، يشوهون جثثهم بالرصاص، ثم يرمون بجانبهم سكينة ويتهمونهم بعملية طعن، أرواح تسلّقت إلى السماء دون ذنب، تشرّبت الدماء كعك العم أبو أحمد وفارق الحياة في ٣٠ آذار.

أقول دائما "ابعدوني عن السياسة"، لأني أؤمن أنها أشبه بكتلة من القذارة تتلاقفها الأيدي من أول حجر إلى آخر نهر، لكن بقاياها مازالت عالقة في أقرب الأشياء حولنا، كذرات رغيف خبزنا التي تتصدق علينا به مدن الخيرات، فلننظر إلى مكونات معدتنا أولا ثم نبتعد، إسرائيل يملئ القبح أجنابها، دنيئة جدًا، لكنها ذكية أكثر في نقل صورة منمّقة عن نفسها لتشعل عواطف الشعوب العربية معها، هناك من باع عروبته واشترى نجاستهم، وهناك أيضا من تشهد لهم المواقف بإنسانيتهم، استشهد العم أبو أحمد في يوم الأرض الفلسطيني، فلترقد روحك بسلام.

ابتلعت حزني كي لا أنقل طاقتي السلبية لجنى..

- صحيح، أخبريني، هل أنت سعيدة بزواجك؟

- لا تكفي حروفي يا لجين، سمعت كثيرًا أن الرجال لا يشبهون أنفسهم بعد الزواج، يتغيرون وينقص الحب تباعًا، لكن حسن اقتلع هذه الأفكار من مخيلتي، حبه يزداد كل يوم أكثر، يخاف عليّ ويصونني كطفلة أربى بين يديه، لن أجد بجمال روحه وقلبه أبدا، يداوي حزني باحتوائه.

الرجال لا يشبهون بعضهم، أشبههم دائما بالزهور، بعضهم كالقرنفل الأبيض يحيطهم الكبرياء، والبعض الآخر كالأقحوان الأحمر لا يصرحون بحبهم، منهم من يكون كزهرة ديقلنيوم

البنفسجية جميلة الهيئة لكنها سامة، هناك النرجسي الأصفر المتعجرف، وآخرون كاليزانثس الوردي لا يعيشون كثيرًا، وترى منهم خفيف الظل كالسوسن، مخلص القلب كالهدرانجيا، والأوفياء كزنبق الياقوت الأزرق.

- وأنتِ يا لجين؟ ألم يطرق أحدهم باب قلبك؟

- لا أعلم إن كنت سأسميه حبّا أم إعجابا عابرًا لنخوته وشهامته، شيء يصعب عليّ وصفه، كان أستاذًا بنكهة الوطن.

- من يكون؟ هل هو جزائري؟

- لا، غزّي

ملامحها تغيّرت، ارتشفت كوب الشاي وتاه نظرها بعيدًا، كنت أعلم أنها ستكون صدمة لها، وأعلم أيضا أن الارتباط بجزائري أسهل ألف مرة من الارتباط بغزّي، لا يستطيع أن يأتي إلى الضفة الغربية، ولا أنا قادرة على الذهاب إلى منطقة مذبذبة أمنيًا، أنا لا أحبه على أية حال.

- ما اسمه؟ حدثيني عنه قليلا.

- ياسر، عشريني العمر، يوسفي الجمال، عيناه البنية وذقنه الخفيفة وجسده الرياضي، تفاصيل تشتت النظر وتأسره، أما رجولته فهي فتنته التي لا خلاص منها.

- أعطه فرصته معكِ يا لجين، لا تجعلي من تجربتك السابقة سياجا يفصل بينك وبين الرجل الذي يستحقك، لكن لا تتسرعي.

عدت إلى منزلي، وأنا أجر خلفي مشاعري المكدّسة بالحزن والحب والتشتت، وقفت للحظة أستمع لذاك الصوت القادم من بعيد، المآذن تصدح وتعلن أن غدا هو أول أيام شهر رمضان المبارك.

شهر معبق بالزفرات الروحانية، المساجد ممتلئة والهدوء ينساب إلى القلوب، تضمنا طاولة واحدة، الفقير والغني، الكبير والصغير، كلهم ينتظرون صوت المدفع ليعلن انتهاء اليوم الأول، المدينة مزينة والتراتيل الدينية تجوب الشوارع، عصير الخروب والتمر الهندي، القطايف والكنافة النابلسية، كلها طقوس اعتدنا عليها، مرت سنتان ونحن نفطر على أخبار مقيتة، أدعو الله أن يضم السلام روحنا هذه السنة.

وصلتني رسالة من رقم غريب «كل عام وأنتِ بخير»، لم أعطِ الموضوع أهمية، أظنها بالخطأ.

نصف ساعة تفصلنا عن أذان المغرب، الجوع يسري في جسدي، ورائحة الطعام لا تقاوم، أجمل ما في عائلتي أنها متعاونة، أجد والدي يصنع الحلويات، وأخي يجهّز مائدة الفطور، لا أحد جالس وغيره متعب.

ومع تكبيرة «الله أكبر.. الله أكبر»، وصلتني رسالة نصية أخرى من الرقم نفسه «صياما مقبولًا وإفطارا شهيًا»، بدأ الشك يتسلل داخلي، لمن هذا الرقم وماذا يريد!

- اتركي هاتفك يا لجين وكلي جيدًا
- حاضر يا أبي

ما زالت الرسائل المنكّهة بالاهتمام تطرق أبواب هاتفي، أما المرسل مجهول لي، وفي تلك الليلة قررت أن أعرف هويته، دخلت غرفتي وأخفضت صوتي..

- مرحبا
- أخيرا اتصلتِ يا لجين؟
- مين حضرتك؟
- ياسر
- ياسر !، كيف جبت رقمي؟
- من سجلّ الطلاب

لم أكن أتوقع بأن روحه ستزورني هنا أيضا، كنت أرغب بنسيانه، لا املُّ التفكير فيه، كل شيء يذكرني به، لا أنكر أني أشتاقه جدًا، هذه المرة الأولى التي أقع فيها فريسة لخوفي، الحب أحيانًا يزورنا بين مناخين معكّرين.

- عفكرة، مش حلوة الجزائر بدونك.
- ياسر، ليش بتبعت لي؟
- لأني اشتقت لك.

ابتسامة غزت ملامحي، رغم أيماني بأنه جاء في الوقت الخطأ، إلا أنه يمدّني بسعادة لا تقاوم، أعيش في دوامة لا مفرّ منها، لا أعلم لماذا الطيبون يأتون على عجلٍ، فيذهبون ضحية تجاربنا السيئة.

بقي ياسر يذكرني كل فترة، عاد هاتفي لحالته القديمة قبل أن يتحول إلى صحراء قاحلة، تنفرج أساريري بعد كل رسالة منه، لكنّي بعد التفكير أدخل بتيهٍ لا مفر منه.

تمر الأيام آخذة معها شهر الخير الذي قارب على الانتهاء، جاء والدي يزفّ إلينا خبرًا رائعًا، دمعت عيناي لأجله..

- سنذهب لنحيي ليلة القدر في القدس

المدينة التي لم أدخلها يومًا، لطالما حلمت زيارتها، بدأت أتخيّل قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، ذهبت في تفكيري إلى مشاهد لم أرها إلا على التلفاز، حين يكون الاشتياق للتراب و الأحجار ولصغريات التفاصيل كالهواء، حين تكون متعطشًا لنظرة عابرة لقبة ذهبية تعكس شعاع الشمس اللامع على هلالها الأعلى، عندما تكون فلسطيني الدم والجنسية والأحقية، ولا تمتزج أنفاسك

بذرات الأكسجين التي امتلأت بكل الجنسيات وكل الغرباء عداك أنت!، لأنك تنتظر تصريحًا أو بطاقة عبور من سجّانك للتراب الذي خلقت منه، حين تغمض عيناك، وتحلم بأنك عابر بين طرقات البلدة القديمة في القدس، وتشتم رائحة الخبز الذي يحمله ذاك العجوز صاحب اليدين المتعبتين المباركتين المقصوصتين من آثار اعتداء مستوطن مثلًا عليه بالخطأ، حين تركع في داخل المصلى هناك فترى حولك النقوش والأضواء و الفسيفساء، أما عن السجاد فهو منحوت ببصمة الخزي والنتانة منذ أول مرة دخل فيها ذاك النجس عام ألفين إلى النقاء و الطهر، حين ترى الشرطة هناك تضع على أكتافها علم التخاذل وتلبس بدلتها العسكرية المرشقة بدماء طفل بريء كان يلعب الاختباء، شرطة الاحتلال والاغتصاب والقتل والاعتقال.!

ظننت أن الحلم سيتحقق برؤيتها، لكن الواقع أمرٌّ من تهيؤاتنا المريضة، لم أستطع المرور لأجل سنّي الذي لم يتجاوز الأربعين، ولا حتى تصريح لعبوري، بدعوى ذرائع أمنية لا صحة لها، لم تكن صدمة أو كارثة، أمر متوقع.

- لا تحزني يا لجين، ستزورينها يومًا ما
- لا بأس يا أبي

تكبيرات العيد تنادي بوجود فرحة لا فرح فيها، لا يوجد لهفة مثل كل سنة، الأطفال من لا يعرفون معنى الموت، هم فقط من يفرحون

بملابسهم وكعكهم، أما نحن فندرك أن الأجل حين يأتي يصبح الكعك مرّا، والملابس معتمّة بالسواد، رسالة من ياسر «أنتِ الخير في كل عام»، حتى معايداته مختلفة، لا ينسى أي مناسبة إلا وأكون جزءً منها، الحب المطوّق بالاهتمام لا يزول أبدًا.

تتسارع اللحظات، وعدت أجهّز نفسي ثانية لإكمال بقية الحلم بعد انقضاء ثلاثة أشهر، أمي تضع لي الزيت والزعتر وكل شيء قد أحتاجه في غربتي، استودعت الله بلدي أن يحفظها من كل سوء، واستودعت أهلي في وداع أخير لن أكرره ثانيةً، ومن هنا توجهت إلى مطار الملكة علياء وصولًا إلى الجزائر في تمام الساعة العاشرة مساءً.

لم تكن الطريق غريبة هذه المرة، اعتدت على السفر وتحمل المسؤولية، في كل مسافة أخطوها أتعلم دروسا لم آخذها في المناهج الدراسية، قد تكون الحياة أهم منهاج لم يتقنه أحد.

وصلت البيت، ورأيت سماح قد خسرت نصف وزنها، ولكنها مازالت تبتسم!، اشتقت إليها فعلا..

- سماح، أخبريني، كيف كانت إجازتك؟
- لم أشعر بها.
- لماذا؟

- قضيت إجازتي عند خالتي، لم يرغب والدي باستقبالي في منزله بعد أن انتهت علاقتي بابن عمي في المحكمة رغمًا عنهم، خلعت خاتمي في أول أيام العيد، إني بنظره الآن تلك الفتاة العاقّة لوالديها لأني قلت «لا» بإصرار وقوة، كنت سأضعف أمام حبي له، لكنّي تماسكت، أنا الآن حرة يا لجين رغم كل شيء.

عانقتها بشدة، ورجوتها أن تطلب العفو من والدها، باركت لها كما لو أني أبارك لها نجاحًا، هي بالحقيقة نجحت حين اختارت طريقا نحو سكينتها، السعادة تكون فقط بالحب.

صباح جديد، ويوم دراسي أول، الرهبة لم تعد موجودة، لكن الاشتياق غلب على أمري هذه المرة، جهزّت نفسي، واقتسمت طعامي الذي أحضرته معي من عبق الوطن.

هاتفي يرن، بدأت أشعر بالتوتر كلما رأيت رقم ياسر..

- صباح الخير، أخيرًا وصلتِ الجزائر!

- أهلا ياسر صباح النور، آه الحمد لله وانا بالطريق للجامعة.

كان ينتظرني أمام باب الكلية، نظراته تذيب القلب، بدأ الاشتياق يخترق ملامحه، لا أستطيع الصمت والتأمل في هذه اللحظات، الأعين خائنة، والروح معجونة بالانتظار..

- جِبْت لك هالأغراض، من ريحة الضفة

- شو ها دول لجين؟

- مش أنتَ حكيت "اقتسم أشيائك"؟، نفذّت وصيتك

ابتسم بهدوء، وأنا امتلكني التوتر قليلًا، سألت نفسي، ماذا سيكون رده إذا علم انّي مررت بتجربة سابقة، هل سيكمل مشوار الهيام هذا كما هو الآن؟ لا أظن.

قاطع شرودي بسؤاله..

- لجين، عن شو قررتي تعملي رسالتك الماجستير؟

- عن زواج القاصرات

الطفلة التي تسلب منها عذريتها وهي لم تنهِ لعبتها الأخيرة، تلك الصغيرة تجبر على الزواج من رجل يجعل منها أمّا، لتنشئ جيلًا جديدًا بعمرها الذي لم يتجاوز الاثني عشرة عامًا، تلبس ثوبها الأبيض ظنًا منها ـنها ستعيش دور العروسة لساعتين فقط، ثم ستغادر حفلها إلى بيت عائلتها مجددًا، رأيت أن المغرب العربي يتكاثر فيه هذا المرض ويعشش بين أهلها، هذه الظاهرة تقتل حياةً قبل أن تبدأ، المآسي الجسدية والنفسية التي تحيط بالقاصرات يجب الوقوف عندها، أن الفتاة لها كيانها منذ خروجها من رحم أمها، تكتب في هويتها «أنثى»، وليست دميةً تتلاقفها الأيدي بين القمع والقتل البطيء المحرّم.

هذه السنة سأرسم في أيامها رسالتي الماجستير التي ستلبسني ثوب التخرج، بدأت أجهّز رسالتي، من هنا بدأت رحلة البحث عن المعلومات.

أسهر كل ليلة أجدّل حروف الأمل المرهون بهذه الأوراق، أستخرج القوانين التي ستدعم محتوى رسالتي، لكن الصدمة كانت عدم وجود قانون يمنع زواج هؤلاء الفتيات اللواتي لم يتجاوزن الثمانية عشر عامًا، باعتبارهن قادرات على اختيار طريقهنَّ الصحيح، تسلل الغيظ إلى صدري، وكيف لأطفال أن يختاروا طريق حياتهم، لربما القانون في هذه الحالة يجب أن ينبع من الإنسانية الميتة عند الأهالي اللذين يبيعون صغارهم لأجل المال!

نمت فوق كتبي حتى الصباح، استيقظت والصداع يخيم على رأسي، ذهبت إلى جامعتي للمرة الثامنة أبحث عن بعض الكتب التي ستساعدني في بحثي، لكن لم أجد شيئا، بدأ الاكتئاب يتسلل إلى جسدي، الإحباط يبني سدّه المنيع أمام أحلامي، هذه الحالة التي لم أتوقع الوصول إليها يومًا، هاتفي لم يهدأ منذ أسبوعين، ياسر يحاول محادثتي كثيرا لكن اليأس الذي اشعر به لن يفهمه أحد لذلك فضلت التجاهل قليلا، خرجت من المنزل لأغير الهواء الخانق في رئتيَّ.

يرن مجددًا..

- لجين، أنتِ وينك!

- آسفة ياسر، كنت متضايقة ها الفترة.

- خليني أشوفك شوي.

- أنا عند شجرة الياسمين.

أتى بسرعة والخوف مشتعل في وجهه، أنبّني بنظراته، حلّفني ألا أهمل وجوده ثانيةً، احتواء لم أشعر به من قبل.

- اتركي موضوع الكتب عليّ، وهلأ تعالي معي، وما تسأليني وين

مكان مليء بالزهور، روائح تشبع الوجدان، متنزّه غزلت كل واجهة فيه بنوع من الورود الساحرة، جمال هذا المكان فرّغ طاقتي السلبية المحفورة داخلي.

- لما أتضايق باجي هون يا لجين

أما المنطقة التي أراد ياسر الجلوس فيها معبّقة بالجوري الأحمر، أغمض عيناه، وتاه في خباياها، شعرت بأنه عطره منسوج بالجوري.

- ياسر، شو عطرك المفضل؟

فتح مقلتيه فجأة، رفع من هامته، وسافرت أفكاره بعيدًا، أخرج علبته المائية الصغيرة من جيبته..

- هاد عطري المفضل، خدي شوفيه

كانت قطعة بيضاء مبللة بالدماء، اعتراني الخوف وأنا المسه بين يدي، أحسست بغصة امتلأت في صدر ياسر..

- شو هاد ياسر؟

- بتتذكري فنجان القهوة يوم الرحلة؟، هاد دم صاحب الفنجان، رائد استشهد بالحرب، بدك أحلى من هيك عطر بريحة المسك؟

وكأن خنجرًا اخترق قلبي، يحمل بين ذراعيه وطنًا برائحة الكرامة، شعرت بخجلٍ من نفسي، كم نحن ساذجين، وأي جادور هذا يقارن بعبير مسكهم.!

أغلق علبته وأعادها إلى جيبه، تمنيت لو أنه يجيب على أسئلة كثيرة تدور في رأسي، يكبر كل يوم في عيني أكثر، فيه روح مختلفة لا تقارن بأحد، ألا ليت كل الرجال مثله؟

- ياسر، إلّي بعرفك سنة، بس ما بعرف إشي عنك!

- رح أحكي لك سر، أنا كنت أحب زميلتي بالجامعة، قعدنا سنة متل روميو وجولييت، طلبت منها تستناني أجهّز حالي وأطلبها، بس استعجلت وتجوزت، إنك تنتظر شخص بتحبو أصعب من الحب نفسه.

جرأته غريبة، لم يخفي ماضيه ولم يخجل من مشاعره، يأخذ كل شيء ببساطة، عفويٌّ إلى أبعد الحدود.

- طيب وانا؟ ما بدك تسألني عن ماضيي؟
- مستحيل، احتفظي فيه بقلبك يا لجين، شو ما كان

بدأ التعلق به يزيد أكثر، لا أريد التفكير بشيء الآن عدا الماجستير، لا يجتمع في القلب حب اثنين، سأكتفي بحب هدفي.

عدت إلى المنزل بطاقة متجددة، سماح متمددة على الكرسيّ، الكتب فوق رأسها، والوشاح بجانبها أوشك على الانتهاء، شكلها مضحكٌ جدا، كم نحن تعساء بالغربة يا صديقتي.

نمت تلك الليلة وأنا أفكر بتفاصيله المحيرة، هذا رجل بهيئة ملاك أرضيّ...!

استمرت معاناتي مع الدراسة، رغم التعب إلا أن الموضوع كان يجذبني أكثر، كلما تعلمت خفايا أكثر عن الزواج المبكر أحمد الله أني لم أختر قضية أخرى.

ترك لي ياسر رسالة كتب فيها «اطلعي على الشارع»، خرجت مسرعة ورأيته واقفًا، لا يكاد يظهر رأسه من الكتب التي تملأ يديه.

- شو هاد ياسر!!
- مراجع عشان رسالتك، بدي علامة امتياز

البتلة الخامسة

جلست سبعة شهور أغزل أوراقي بجهدي وقلة نومي ورسائل التفاؤل المنبعثة إلى روحي من رفيق غربتي، اليوم مناقشتي ومناقشة سماح للماجستير، لا أحد من عائلتي هنا يشاركني فرحتي، لكن أطيافهم لا تفارقني، هاتفي لم يهدأ من اتصالاتهم الشاحذة للهمم في هذا اليوم الصعب.

وقفت وأنا أرتدي ثوب المحاماة، المحاضرين يجلسون على طاولة يضعون أمامهم نسخ من أوراق رسالتي، أعين الطلبة لا تفارقني، الأسئلة تتوالى على مسامعي، وانا رغم معرفتي، إلا أن الأرض بما رحبت ضاقت عليّ.

«وبعد المناقشة، تقرر إعطاء المحامية لجين درجة الماجستير بتقدير امتياز»، لم أرد بعد هذه الفرحة شيئًا آخر، سجدة لله فقط، دخل ياسر القاعة حاملًا معه باقة من الجوري ملفوفة بالأبيض، وكأن عائلتي كلها هنا بوجوده، التمست الفخر بوجهه، لا تكفي عباراتي لشكرك يا ياسر.

أنهيت أنا ورفيقتي حلمنا الذي سهرنا لأجله سنوات، لحظة الوداع مقيتة، لكن لا بد منها، جهزّت حقيبتي للمرة الأخيرة، لكن المرة هذه بدموع اشتياقي لكل شيء، لشوارع قسنطينة، للجامعة، لفصل الشتاء والجسور والزهور، أغلقنا الباب وسمعنا صوت صداه يخترق قلوبنا.

- انتبهي لنفسك يا سماح، سأشتاقكِ فعلا

- لجين، هذا الوشاح لكِ

أعطتني وشاحها الأحمر الذي غزلته بروحها طوال هذه السنتين، أجمل الهدايا التي وصلتني في حياتي، لا أعتقد أنني سأجد قلبا بنقاء سماح، ستظل سعادتي البعيدة طوال الحياة.

بقي شخص واحد عليّ رؤيته، قد لا أتمكن من صياغة كلماتي أمام عينيه، اكتفيت برسالة نسجتها له بمُهجتي طوال هذه الفترة، «أنت وطني الضائع بين حاجز وجدار، أنت اللجوء والمنفى.!»، أعطيته هذه الورقة، ومدّ لي يده وسلمّني علبة سماويّة صغيرة..

- لجين اوعديني

- بشو أوعدك؟

- ما تفتحي العلبة إلا بعد ما نفترق من هون

- بوعدك

الجزائر كانت قادرة على احتواء فلسطين بداخلها، هذه المرة الأولى التي أشعر بوجود وطن آخر يجمع الخريطة دون حواجز أو حدود على ترابها، افترقنا عند تلك النقطة التي ذهب فيها ياسر إلى مطار القاهرة، وانا إلى مطار الملكة علياء، لا أعلم إن كنت سأقابله ثانية أم لا.

المسافة في الطائرة هذه المرة مختلفة، لم أنظر إلى البحر أو الصخر، بل بقيت في غيمة واحدة أتوه بين تفاصيلها لا أعلم إلى أين، لكنّي على يقين بأني سأصل.

تذكرت علبة ياسر، الفضول اقتص جزء منّي، فتحتها وأنا أخمن ماذا يمكن أن تحتويه هذه العلبة؟ كانت المسافة بين ثغري والغطاء مقدار ابتسامة لا تُخلق إلا معه، اسمانا منحوتان على ورقة زيتون دائرية تشبه خاتم خطوبة، وورقة كتب فيها «انتظريني»، تذكرته حين قال بأن الانتظار أهم من الحب نفسه، أيمكن لهذين القلبين إن يجمعهما غصن زيتون ويفرقهما وطن؟

عدت إلى نابلس وأنا أحمل مسؤولية جديدة على كاهلي، دخلت منزلي ووجدت عائلتي تستقبلني بدموع الفرح التي هرمت وأنا انتظرها.

توظفت في المحكمة الشرعية، المكان الذي دخلته أول مرة وأنا أخلع فيه حزني، والآن عدت إليه لأخلع الحزن عن بقية المتعاقبين

من الحياة، تمرّ القصص المشابهة أمامي كل لحظة وأنا أجلس أستذكر البؤس الذي عشته فأحلف بأني لن أدع قلبها يتمزق كما تمزقت، قال لي القاضي حينها، أنا أحكم بعدل الله الذي لم يُخلق دستور مثله، ينصر المظلوم ويعيد الحقوق، وتظل المرأة فيه ملكة على عرش الكرامة.

وأنا في طريقي إلى عملي، رأيت ذاك الرجل زائغ العينين، يمشي ويجرّ خلفه تلك المرأة المتخفّية، تمسك طفل بيديها وثانٍ في بطنها وثالث مع أبيه، صعقت حين كان ذاك الذكر وسيم، تخيّلت نفسي مكان تلك الضحية العاشرة، استعذت بالله منه تسعًا وتسعين مرة.

أما جنى فقد رُزقت بـ «سيلا»، ديوان شعري، وطفلة بنكهة الجنّة، بيضاء الوجه، سوداء الشعر، عسليّة العينين، محمرّة الوجنتين كأمها.

مرّت الأيام حاملة حياة بنكّهة المسك، وفي ٢١ من يوليو، رن هاتفي..

- المحامية لجين؟
- نعم، تفضل
- معك الأستاذ ياسر، أنا باب المحكمة ممكن أشوفك؟

ذاك المجنون الذي أسر روحي وقلبي وكل زاوية في تفاصيلي، قدّم لوظيفة في جامعة بيرزيت، وعيّنَ محاضرًا فيها، عاد إليّ كما

وعدني، نفذّ كلمته التي كانت سيفًا على رقبته منذ أن أهداني غصن الزيتون المغموس بكلمته الأخيرة «انتظريني»، وأنا كنت استحق حبه، فانتظرته.

جاء لوالدي، وأنا احتفظت بسرّ معرفتي به حتى النهاية، استطاع أن يتوّج يدي بخاتمه دون استعطاف والدي، بل برجولته التي وضعته بموضع القبول دون رفض أبدًا، وألبسني الخاتم في ٣٠ سبتمبر.

جمعتنا رغبة واحدة لطالما تمنيتها، لن ألبس الفستان الأبيض، ولن ادفع الألاف لأجل حفل يستمر ساعتين لا يملأ روحًا خاوية بالسعادة!، لبست الثوب الفلسطيني ووضعت قليلا من الكحل الأسود، وأنهيت بلمسة أخيرة من عطر «شانيل» المعبّق بالجوري، أقمت وليمة جمعت فيها أصحاب القلوب الغنية بالطيبة، والفقيرة بالمال، كي يبارك الله بقية أيامي معه.

واستيقظت من شرودي على صوت كرسيه الذي أحضره بجانبي وكوبه الذي أيقنت فيه أن على هذه الأرض ما يستحق الحياة فعلًا.

وما زال ياسر السر الذي لا يعرفه أحد غيركم.

النهاية

إليكِ بعضٌ من رذاذ عطر حروفك يا جميلة..

أ: اصنعي الحب بابتسامتك واغزلي عيناكِ بالسعادة.

ب: بادري بالاهتمام وابحثي عن نواقص نفسكِ وأصلحيها.

ت: تمردي على كل من يقول لكِ هناك سقف لأحلامك.

ث: ثوري بعقلك واتركي ثورة الأجساد للجهّال.

ج: جمّلي نفسك بمستحضرات تجميل ورقة.. اقرأي.

ح: حاولي أن تكوني حمامة سلام تذيع الهدوء أينما حلّت.

خ: خلّدي اسمك في تاريخ المبدعات.. ستبدعين.

د: دللي روحكِ.. تستحقين الدلال يا جميلة.

ذ: ذبول وجهك سببه شيء واحد.. موت الفكرة.

ر: راقبي أفعالك وبدّلي منها.. ستحبين قلبك أكثر.

ز: زيّني جسدك بفستان وردي واضحكي!

س: سجدة ودعاء.. هذا كل ما تحتاجينه.

ش: شدّي على قبضتك وانتشلي أحلامك.

ص: صومي عن الحزن وأفطري على ضحكتك.

ض: ضعي اليأس بعيدًا.. أنت قادرة على فعل كل شيء.

ط: طوّقي عنقك بالياسمين.. لكن إياك أن تخنقي نفسك بخيانته.

ظ: ظلّلي رسومات وجهك بكل الألوان عدا الأسود.

ع: عربة الأمنيات بانتظارك.. اذهبي إليها.

غ: غيّري مسار روتينك.. اخلقي يومك بالإنجاز.

ف: فرّغي مشاعرك على ورق.. ستسمعك وتخفي سرك!

ق: قولي «لا» بسهولة.. لا تجبري المريض بأن يعديك بمرضه.

ك: كوني كما تمنيت أن تكوني قبل عشرة أعوام من الآن.

ل: لديك وجه خلق ليبتسم.. هكذا يقولون!

م: مشّطي شعرك وارقصي.. أغمضي عينيكِ.. سترين عتمة ملونة.

ن: نور وجهك لا تطفئيه.. أشعليه بالأمل.

ه: هوّني كربة منكوب.. بتفاؤلك.. وهذا أضعف الإيمان.

و: وردة لكِ ووردة لها.. نعم لصديقتك.. أعطها إياها ستبتسم!

ي: يحيى الحب في قلبك كثيرًا.. لا تقصفيه.. أعطهِ فرصة.